الفصل السادس:

[الغزوات والسرايا والبعوث بعد غزوة بني قريظة حتى الحديبية]

الغزوات والسرايا والبعوث بعد غزوة بني قريظة حتى الحديبية:

بعد ما حقق المسلمون ما حققوه من نجاح في صد الأحزاب وإفشال خططهم، وردهم كيد يهود بني قريظة في نحورهم، فباشروا نشاطا واسع النطاق ضد خصومهم على كافة الجبهات، فقد ضيّقوا الخناق الاقتصادي على قريش من جديد كما نفذوا العديد من السرايا لمعاقبة المشاركين في الأحزاب من جهة أو للثأر من القبائل التي كانت قد غدرت بالدعاة أو ناصبت الإسلام العداء وقد تمثّل النشاط العسكري الإسلامي خلال هذه الفترة في ما يلي:

مقتل سلام بن أبي الحقيق:

كان أبو رافع سلاّم بن أبي الحقيق [1] من زعماء اليهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المدينة بعد نقضهم العهد والميثاق معه فتوجه مع بقية زعماء بني النضير إلى خيبر، فدان لهم يهودها، ومع ذلك كانوا دائما يتطلعون إلى الفرص السانحة للثأر من المسلمين والعودة مرة ثانية إلى المدينة، ورأوا أن هذا الهدف صعب المنال مالم يتم القضاء على قوة المسلمين المسيطرة في المدينة وما حولها، وأن ذلك لن يكون إلا بعمل ضخم منسق ضد المسلمين، فقوة اليهود وحدها لا تكفي لذلك، ومن خيبر بدأوا اتصالات موسعة وسفارات متعددة كان الهدف منها تحزيب أكبر قوة ممكنة من العرب تغزو المسلمين في عقر دارهم وتستأصلهم، وقد تم تقسيم خطة العمل بين هؤلاء الزعماء لهذا الغرض، فكان سلام بن أبي الحقيق - كما يذكر عروة - له اليد الطولى في تحزيب قبائل غطفان النجدية الكبيرة وحلفائها من "مشركي العرب يدعوهم إلى قتال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويجعل لهم الجعل [2] العظيم" [3].

---

(١) اختلفت المصادر في ذلك، فمنها ما سماه عبد الله، ومنها ما سماه سلاّم، ومنهم من نسبه إلى أبيه دون ذكر اسمه، والبعض نسبه إلى كنيته فقط، ولكن الأكثر على أنه سلام بن أبي الحقيق. انظر: عبد الرزاق، المصنف (٥/ ٤٠٨)، وابن هشام، سيرة (٢/ ٢٧٣)، وابن سعد، طبقات (٢/ ٩١)، وابن حزم، جوامع (١٩٨)، وابن عبد البر، درر، ص ١٩٥.

(٢) الجعل: ما تجعل للغازي إذا غزا عنك بجعل. (لسان العرب، والقاموس، مادة: جعل).

(٣) انظر: ابن حجر فتح (٧/ ٣٤٣)، البيهقي، الدلائل (٤/ ٣٨)، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٩١.

ولما انقضى أمر الخندق وبني قريظة بعد أن انفض الأحزاب عن المدينة بغيظهم لم ينالوا خيرا، وقُتل حُيي بن أخطب النضري شريكُ أبي رافع القوي في تحزيب الأحزاب - مع بني قريظة - فنال بذلك القصاص العادل الذي أفلت منه سلام بن أبي الحقيق حيث كان بعيدا في قومه في حصون خيبر فأصبح بالنسبة للمسلمين مجرم حرب خطيرا هاربًا لابد من القضاء عليه حتى لا يقوم بتحركات مماثلة في المستقبل تهدد أمنهم وسلامتهم.

وكانت الأنصار كما أشار أهل المغازي[1] يتنافسون فيما بينهم تفانيًا في خدمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]. فلما أصابت الأوس كعبَ بن الأشرف بمبادرة بطولية من جانبهم، فحققوا بذلك سبقا إسلاميًّا على منافسيهم من الخزرج الذين بَدَوْا متحفزين للقيام بدور مماثل، فما أن ندب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ابن أبي الحقيق حتى سارعوا إلى التطوع للانخراط في هذه المهمة الشاقة على صعوبتها وما يحيط بها من أخطار، فالرجل بعيد عن قاعدة الإسلام: المدينة، وهو في مَنَعة من قومه وحصونهم وحلفائهم من غطفان، ومن أجل ذلك تخيَّر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجالاً منهم فيهم بعض الشروط المناسبة لهذه المهمة الصعبة، فكان عبد الله بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائدًا لهذه السرية حيث تذكر بعض المصادر أنه كان يتقن العبرية بطلاقة - إضافة إلى صلته السابقة بأبي رافع[2]. واهتمت روايات أهل المغازي بتسمية بقية أفراد السرية على خلاف بينها في بعضهم[3].

---

(١) انظر الزهري، المغازي النبوية (١١٣)، وعبد الرزاق، المصنف (٥/ ٤٠٧ - ٤٠٨)، ابن هشام، سيرة، ٣/ ٢٧٤، الواقدي، مغازي، ١/ ٣٩١، ابن سعد، طبقات، (٢/ ٩١، البيهقي، دلائل (٤/ ٣٣).

(٢) ذكر ذلك الواقدي، وكاتبه ابن سعد رواية عن جمع من شيوخه، منهم الواقدي. وذكر خليفة أن أم عبد الله كانت بخيبر، ولكن الواقدي ذكر أنها أمه من الرضاعة. انظر: خليفة بن خياط، الطبقات (١٠٣)، والواقدي، مغازي (١/ ٣٩١ - ٣٩٢)، وابن سعد، طبقات (٢/ ٣٩٥). وربما يؤيد رواية الواقدي وابن سعد ما وقع في روايات الصحيح من أن عبد الله بن عتيك رضي الله عنه حينما دخل على أبي رافع وضربه، ثم رجع إليه كلمه كهيئة المغيث، وتكرر ذلك منه مرارا، ولا يمنع أن يكون الحديث بينهما باللغة العربية التي يتقنها أبو رافع، ولكن ما عرف من خبث اليهود وحذرهم الشديد وجبنهم يجعلنا نستأنس بهذه الروايات على ضعفها. والله أعلم.

(٣) اتفق أهل المغازي في أسماء ثلاثة منهم، هم: عبد الله بن أنيس، ومسعود بن سنان، وأبو قتادة. انظر: عبد الرزاق، المصنف (٥/ ٤٠٧ - ٤٠٨)، ابن هشام، سيرة (٣/ ٢٧٤)،

وعلى كلٍّ انطلق هؤلاء المغاوير الشجعان ببسالة لإنجاز مهمتهم، ووصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتردد صداها على مسامعهم «**لا تقتلوا وليدًا ولا امرأة**»[1] حتى إذا ما دَنوا من الحصن الذي يقيم فيه أبو رافع "وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم[2]"[3]. قال قائد السرية عبد الله بن عتيك لأصحابه: "اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل" فأقبل عبد الله - وكان قد فكر بحيلة يستطيع بها خداع البواب فيدخل دون أن يفطن إليه فلما دنا من الباب" تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته[4]. وقد دخل الناس فهتف البواب: يا عبد الله[5] إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب[6]، قال عبد الله: "فدخلت ثم اختبأت في مربط حمار عند باب الحصن[7] فتعشوا عند أبي رافع وتحدثوا حتى ذهبت ساعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم، فلما هدأت الأصوات، ولا أسمع حركة خرجت، قال: ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفتاح الحصن في كوة[8] فأخذته ففتحت به باب الحصن"[9]، "فجعلت كلما أفتح بابا أغلقت عليَّ من داخل، قلت: إن القوم نذروا بي لم يخلصوا إليَّ حتى أقتله، فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت؟"[10] وهنا يتذكر عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصية رسول الله

والبيهقي، دلائل (٤/ ٣٤)، الواقدي، مغازي (١/ ٣٩١)، وابن سعد، طبقات (٢/ ٩١).

(١) انظر عبد الرزاق، المصنف (٥/ ٤٠٧)، وابن هشام، سيرة (٣/ ٢٧٤)، البيهقي، سنن، ٩/ ٧٧، ابن حجر، إصابة، ٢/ ٣٤١، الهيثمي، مجمع (٦/ ١٩٨).

(٢) السرح: المال السائم الراعي وسرحت الماشية، أي: أخرجتها بالغداة إلى المرعى (القاموس واللسان: سرح).

(٣) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤١)، ورواها البيهقي، دلائل (٤/ ٣٧).

(٤) أي يتبول أو يتبرز وكان الناس في ذلك العهد تعودوا على قضاء حوائجهم خارج بيوتهم، وقد حققت له هذه الحيلة على بساطتها ما كان يهدف إليه حيث ظن البواب أنه من أهل الحصن يقضي حاجته خارجه، فهتف به للدخول غير شاك به.

(٥) لم يُرد اسمه العلم لأنه لو كان كذلك لكان قد عرفه، فالذي يظهر أنه أراد معناه الحقيقي لأن الجميع عبيد الله. ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤٣).

(٦) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤١).

(٧) كأنه كان للحصن بابان، باب من داخل، وآخر من خارج.

(٨) الكوة: بفتح الكاف وبضم، والكوة: الخرق في الحائط، وقيل بالفتح غير النافذة، وبالضم النافذة. ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤٣)، والقاموس، مادة (كوه).

(٩) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤٢)، البيهقي، دلائل (٤/ ٣٥).

(١٠) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤١)، والبيهقي، دلائل (٤/ ٣٧).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن هو ضرب على غير هدى كخبط عشواء لربما أصاب بعض عياله أو نسائه، لأجل ذلك صاح به ليعرف مكانه "أبا رافع، قال: من هذا؟" يقول عبد الله: "فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئا وصاح، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟، فقال: لِأُمك الويل إن رجلا في البيت ضربني قبلُ بالسيف". "قال: فعمدت له أيضا فأضربه أخرى فلم تغن شيئا فصاح وأقام أهله، قال: ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المغيث، فإذا هو مستلق على ظهره فأضع السيف في بطنه ثم أنكفيء عليه حتى سمعت صوت العظم، ثم خرجت دهشا حتى أتيت السلم أريد أن أنزل فأسقط منه فانخلعت رجلي[1] فعصبتها، ثم أتيت أصحابي أحجل[2] فقلت: انطلقوا فبشروا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية"[3] "فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز"[4] "قال: فقمت أمشي ما بي قلبة[5] فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[6] "فحدثته، فقال: «**ابسط رجلك**» فبسطت رجلي فمسحها فكأنما لم أشتكها قط"[7][8].

ويذكر كتاب السيرة أن سرية ابن عتيك كلها شاركت في ضرب أبي رافع وأن كل واحد منهم ادعى انه ضربته كانت هي القاضية على أبي رافع، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجلوا بأسيافكم**» فأتوا بأسيافهم فنظروا إليها، ثم قال: «**هذا قتله**»، وهو سيف عبدالله بن أنيس، هذا أثر الطعام في سيف عبدالله

---

(١) وفي: "فانكسرت ساقي"، قال ابن حجر: ويجمع بينهما بأنهما انخلعت من المفصل وانكسرت الساق، وقال الداودي: هذا اختلاف، وقد يتجوز في التعبير بأحدهما عن الآخر لأن الخلع هو زوال المفصل من غير بينونة أي بخلاف الكسر.

(٢) الحجل: أن يرفع رجلا ويقفز على الأخرى. (اللسان: حجل).

(٣) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤٢)، والبيهقي، دلائل (٤/ ٣٥).

(٤) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤١)، والبيهقي، دلائل (٤/ ٣٧).

(٥) أي: ألمٌ وعلة. ابن الأثير، النهاية (٤/ ٩٨).

(٦) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤٢)، وانظر البيهقي، دلائل (٤/ ٣٥).

(٧) ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤١)، وانظر البيهقي، دلائل (٤/ ٣٧).

(٨) ابن حجر، فتح (٦/ ١٥٥) الزهري، المغازي النبوية، ١١٣ - ١١٤ - ١١٥)، عبد الرزاق، المصنف (٥/ ٤٠٧ - ٤٠٨)، وابن هشام، سيرة (٣/ ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥)، البيهقي، دلائل (٤/ ٣٨)، أبو يعلى، المسند (٢/ ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦).

بن أنيس[1] .

وقد يتوهم القارئ الكريم أن هناك تناقضاً بين رواية البخاري ورواية كتب السيرة الأخرى التي تقول أن الضربة القاضية كانت من عبدالله بن أنيس والحق أنه ليس كذلك ، ذلك لأن عبدالله بن عتيك يخبر عن نفسه وأنه غلب على ظنه أنه هو القاتل وأنه قد حكى عن دوره في ضرب اليهودي أبي رافع ، ولايعني هذا أن غيره لم يشارك في قتله ، إذ لم ينف هو مشاركة غيره له في قتل أبي رافع ، والروايات يفسر بعضها بعضاً ويشرح بعضها بعضاً والروايات تذكر أن كل واحد من أفراد السرية كان يدعى أن ضربته هي القاضية والمميتة لأبي رافع ، وقد نظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعواهم وفحص سيوفهم وحكم بعد ذلك بأن الضربة القاضية كانت بسيف عبدالله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لظهور أثر الطعام عليه ، أي أن هذا السيف قد دخل جوف أبي رافع ومزق أحشاءه وقطع أمعاءه وخلط غذاءه في جوفه[2] .

وهكذا تم بهذا العمل الجريء الشجاع القضاء على مجرم حرب خطير كان له دور بارز ومميز في تحزيب الأحزاب ضد المسلمين ، فنال بذلك القصاص العادل الذي يستحقه بالفعل ، فلو أراد الله عز وجل ونجحت مخططات الأحزاب لكان في ذلك القضاء المبرم على المسلمين ولكن الله سلّم ، وفشلت مخططاتهم وهزمهم الله وحده وقتل الله حُيَيَّ بن أخطب مع بني قريظة ، ثم قضى على أبي رافع بمبادرة بطولية من الخزرج فتخلص المسلمون من عدوين خطيرين كان في بقائهما تهديد كبير لأمنهم وسلامتهم .

ومن فوائد هذا الموقف التي استخرجها ابن حجر حيث قال: وفي هذا الحديث من الفوائد جواز اغتيال المشرك الذي بلغته الدعوة وأصر ، وقتل من أعان على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده أو ماله أو لسانه ، وجواز التجسس على أهل الحرب وتطلب غرتهم ، والأخذ بالشدة في محاربة المشركين ، وجواز إيهام القول للمصلحة ، وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين والحكم بالدليل والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته واعتماده على صوت

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٩١ - ٩٢) ؛ المغازي للواقدي (١/ ٢٩٤) ؛ المغاز النبوية للزهري ، ص١١٤ .

(٢) الصراع مع اليهود ، ١/ ١٨٩ .

الناعي بموته والله أعلم[1].

ومما يستفاد من الحديث أيضا النهي عن قتل النساء والولدان إلا إذا كانوا من قوم مبيّتين، وهي مسألة خلافية حيث فيها هذا الحديث وحديث الصعب بن جثامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسأل عن أهل الدار من المشركين يُبيَّتون فيصاب من نسائهم وذراريهم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «هم منهم»[2].

وهناك ملاحظة حرص الخزرج على أن ينافسوا إخوانهم من الأوس الذين قتلوا كعب بن الأشرف فقد كانوا كفرسي رهان في المسابقة في الخيرات فهم لايتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدنيا من المال والمناصب، وإنما يتسابقون إلى الفوز بمرضاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي مآلها رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية[3].

قال كعب بن مالك: وكان مما صنع الله تعالى به لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذين الحيين من الأنصار، الأوس والخزرج كان يتصولان مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصاول الفحلين - يعني يتسابقان في خدمته - لايصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غناء إلا قالت الخزرج: والله لاتذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي الإسلام، قال: فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك[4].

ومعرفة لغة العدو لها فائدة كبيرة، فقد استطاع عبدالله بن عتيك أن يصعد إلى حصن أبي رافع وأن يخاطب امرأته وأن يدخل بيته مطمئناً لأنه خاطبه بلغته لغة اليهود في ذلك الوقت، ويؤخذ من ذلك استحباب تعلم لغة غير المسلمين لاسيما الأعداء منهم وخاصة لأولئك العسكريين الذين يذهبون لمهمات استطلاعية تجمع أخبار العدو وتزود القيادة بها، والقيادة[5].

وكان من أسباب نجاح خطة ابن عتيك في قتل أبي رافع اليهود: ذهابه لوحده، فقد قرر أن يذهب وحيداً إلى الحصن ويحاول أن يدخله ومن ثم يفتش عن طريقة يدخل بها أفراد سريته، تصرفه العادي الذي لم يلفت انتباه أحد من

---

(١) فتح الباري (٧/ ٣٤٥).
(٢) محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٢/ ٢٣٧).
(٣) التاريخ الإسلامي، ٦/ ١٧٧.
(٤) السيرة لابن هشام، ٦/ ١٧٧.
(٥) الصراع مع اليهود، ١/ ١٩١.

الحراس، قدرته على التمويه على الحارس، وإيهامه أنه يقضي حاجته وهذا منع الحارس من النظر إليه وتفحصه وتفرسه في وجهه، مراقبة حركة الحارس الدقيقة بعد دخول الحصن وإغلاقه فقد كمن في مكان لم يشعر به الحارس وراقب الحارس حتى وضع مفتاح الحصن في مكان معين وتابعه حتى انصرف، وأخذ المفتاح وأصبح يستخدمه كيفما يشاء وفي أي وقت شاء[1].

وأن الله عز وجل قد حفظ هذه السرية، فهذا الصحابي الجليل استمر بعون من الله تعالى يمشي ويبذل طاقته حتى بعد أن أصيبت رجله، وكأنه لايشكو من علة حتى إذا انتهت مهمته تماماً وأصبح غير محتاج لبذل الجهد عاد إليه الألم، وحمله أصحابه، فلما حدّث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبره قال له: «**ابسط رجلك، قال فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط**»[2].

وفي هذه السرية درس عظيم من دروس السيرة النبوية، وهو الإخلاص لله والعمل للإسلام في أي موقع وأي مكان، فلا يهم المنصب أو الموقع المهم العمل لله وللإسلام، فالمناصب في الإسلام تكليف وليست تشريف، فوجود عبدالله بن أنيس جندياً في هذه السرية، وليس أميراً فيها له دلالته الكبرى في الإخلاص والعمل لله، فهو العقبي البدري، المصلي للقبلتين فهو من السابقين الأولين من الأنصار، وليس عبدالله بن أنيس نكرة في مجال الجهاد والبطولات، فلابد أن نذكر أنه السرية وحده الذي ابتعثه رسول الله إلى اغتيال سفيان بن خالد الهذلي في أطراف مكة، وهو الذي كان يعد العدة لغزو المدينة وهو الذي نجح نجاحاً باهراً في مهمته تلك، وقتله في فراشه وداخل خيمته، وأعجز قومه هرباً، وعاد منتصراً مظفراً، فهو ملئ بالمجد، ومع ذلك فلم يكن أمير المجموعة، إنما كان أحد أفرادها، وهو يحمل هذا التاريخ المشرق في سجلاته عند ربه عز وجل قبل أن يكون عند الناس.

فالذي يحكم في الجيوش تسلسل الرتب، حتى أن الرتبة الواحدة يحكم فيها المتقدم بالمستجد، وعلى المستجد السمع والطاعة للمتقدم ولو بأشهر. وبهذا المنطق لايجوز أن يتقدم على عبدالله بن أنيس أحد، ولكنه الإخلاص الذي خطه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أكثر من موقع، لتجعل هذا الجيل يتعلم من سابقه، فطالما أرسل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سرايا فيها أبو بكر وعمر جنديان عاديان، في غمار الجنود[3].

---

(١) الصراع مع اليهود، ١/ ١٩٢ - ١٩٣.

(٢) البخاري، المغازي رقم ٤٠٣٩.

(٣) انظر: التربية القيادية، ٤/ ١٤٨.

سرية محمد بن مسلمة إلى بني القرطاء:

كانت أول حملة عسكرية وجهها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتأديب خصومه بعد غزوة الأحزاب والتخلص من بني قريظة هي تلك الحملة التي جردها على القبائل النجدية من بني بكر بن كلاب الذين كانوا يقطنون القرطاء بناحية ضربة[1] على مسافة سبع ليالٍ من المدينة[2].

وكانت تلك العشائر النجدية من أجرأ العناصر البدوية الوثنية على المسلمين؛ وقد رأينا كيف أن العمود الفقري لقوات الأحزاب الضاربة كان من هذه القبائل النجدية، حيث كان رجال هذه القبائل الشرسة يشكلون الأغلبية الساحقة من تلك القوة الضاربة، ستة آلاف مقاتل من غطفان وأشجع وأسلم وفزارة وأسد، كانت ضمن الجيوش التي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين فحاصربهم أهل المدينة[3].

ففي أوائل شهر المحرم عام خمس للهجرة وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة وجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرية من ثلاثين من أصحابه عليهم محمد بن مسلمة لشن الغارة على بني القرطاء من قبيلة بكر بن كلاب، وذلك في العاشر من محرم سنة ٦هـ، وقد داهموهم على حين غرة فقتلوا منهم عشرة وفر الباقون، وغنم المسلمون إبلهم وماشيتهم[4]. وفي طريق عودتهم أسروا ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة، وهم لا يعرفونه فقدموا به المدينة وربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**ماذا عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك. إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟، فقال عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلق

---

(١) قرية عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة من نجد.

(٢) الواقدي، المغازي، ٢/ ٥٣٤، ابن كثير، البداية، ٤/ ١٦٨، الذهبي، تاريخ الإسلام، المغازي، ص ٣٥١.

(٣) الصلابي، السيرة النبوية، ٢/ ٣١١.

(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري - حديث ٤٣٧٢)، مسلم - الصحيح، ٣/ ١٣٨٦ (حديث ١٧٦٤)، أحمد - الفتح الرباني ٢١/ ٨٨ - ٩٠، أبو داود - السنن (كتاب الجهاد ٣/ ١٢٩)، ابن شبّة - تاريخ المدينة ٢/ ٤٣٣ - ٩ بإسناد البخاري ولفظه.

إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان دين أبغض إليَّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إليَّ والله ما كان بلد أبغض إليَّ من بلدك فأصبحت بلدك أحب البلاد إليَّ، وأن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا والله ولكني أسلمت مع محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد أبر بقسمه مما دفع وجوه مكة إلى أن يكتبوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليخلي لهم حمل الطعام، فاستجاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجاء قومه بالرغم أنه في حالة حرب معهم، وكتب إلى سيد بني حنيفة ثمامة: أن خَلِّ بين قومي وبين ميرتهم، فامتثل ثمامة أمر نبيه، وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكة، فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة[1].

إنها المعاملة الحسنة للناس جميعا ولو كانوا من الأعداء، فقد عامل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمامة معاملة حسنة ولاطفه وألان له القول وهو ملك قبضته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مما جعل ثمامة تتغير نظرته للإسلام ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأزال البغض وأنبت الحب في قلبه، كما أنه تأثر بالجو العام السائد بين المسلمين وأخلاقهم الفاضلة، ومعاملتهم الكريمة، لذلك فإنه بادر إلى إعلان إسلامه.

وهو الإسلام الذي يغير سلوك المؤمن فيضع قدراته تحت إمرة الإسلام والمسلمين، كما فعل ثمامة بعدم إرساله القمح لأهل مكة إلا بإذن من الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ.

غزوة بني لحيان:

بعد غزوة الأحزاب بدأت الدولة الإسلامية مرحلة الهجوم والمبادرة مصاقا لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الأحزاب «**نغزوهم ولا يغزوننا**»[2]. وحان الوقت لتأديب بني لحيان الذين غدروا بخبيب وأصحابه يوم الرجيع وأخذ ثأر الشهداء، وإن كان تأديبهم قد تأخر قليلا فذلك مرده أن ديارهم كانت متوغلة في الحجاز إلى

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري - الأحاديث ٥٣٩٣ - ٥٣٩٨)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٣٨٦ (حديث ١٧٦٤)، ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ٣٨١.
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٤٨، مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٦٢.

حدود مكة . والمعارك الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب ، فلم يكن يري رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر ، فلما تخاذلت الأحزاب ، واستوهنت عزائمهم ، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما ، رأي أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بني لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع ، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وخرج إليهم في مائتي صحابي ، في ربيع الأول أو جماد الأولى سنة ست من الهجرة[1] .

ولم يعلن وجهته ، واتبع أسلوب التعمية ، وقد سمعت به بنو لحيان فهربوا إلى رءوس الجبال فلم يقدر على أحد منهم [2] .

لقد كانت بنو لحيان على غاية التيقظ والانتباه ، فقد بثّت الأرصاد والجواسيس في الطرق ليتحسسوا لها ويتجسسوا لذلك فما كاد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقترب بجيشه من منازلهم حتى انسحبوا منها فارين ، وهربوا في رؤس الجبال ، وذلك بعد أن نقلت إليهم عيونهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم .

ولما وصل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بجيشه عسكر في ديارهم ثم بث السرايا من رجاله ليتعقبوا هؤلاء الغادرين ، ويأتون إليه بمن يقدرون عليه ، واستمرت السرايا النبوية في البحث والمطاردة يومين كاملين إلا أنها لم تجد أيّ أثر لهذه القبائل تمنعت في رؤوس تلك الجبال الشاهقة ، وأقام صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ديارهم يومين لإرهابهم وتحديهم ، وليظهر للأعداء مدى قوة المسلمين وثقتهم بأنفسهم ، وقدرتهم على الحركة حتى إلى قلب ديار العدو متى شاؤوا[3].

رأى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريباً من مكة فقرر أن يقوم بمناورة عسكرية يرهب بها المشركين في مكة ، فتحرك بجيشه حتى نزل به وادي عُسفان[4] وهناك استدعى أبا بكر الصديق ، وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه وأمره بأن يتحرك بهم نحو مكة ليبث الذعر والفزع في نفوسهم ، فاتجه الصديق بالفرسان العشرة نحو مكة حتى وصل بهم كراع الغميم[5] ، وهو مكان قريب جداً من مكة ، فسمعت قريش بذلك فظنت أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ينوي

(١) الواقدي ، مغازي ، ٢/ ٥٣٥ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٧٩ .
(٢) الواقدي ، مغازي ٢/ ٥٣٥ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٧٩ .
(٣) الواقدي ، مغازي ٢/ ٥٣٥ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٧٩ .
(٤) عسفان: قرية بين مكة والمدينة على نحو يومين من مكة .
(٥) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة وهو واد .

غـزوها فانـتابها الخـوف والفـزع والـرعب، وساد صفوفها الذعر، هذا هو الذي هدف إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الحركة التي كلف الصديق أن يقوم بها.

أمـا الـصديق وفرسـانه العشرة فبعد أن وصلوا كُراع الغميم وعلموا أنهم قد أحدثـوا الذعـر والفـزع في نفـوس أهل مكة عادوا سالمين إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتحرك بجيشه عائداً إلى المدينة[1]

وعـندما وصـل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بطن (غران) [2]، حيث لقي الشهداء مـن أصـحابه مـصرعهم على أيدي الخونة من هذيل، ترّحم على هؤلاء الشهداء ودعـا لهـم وقال: «**هنيئا لكم الشهادة!**» ثم انصرف رسول الله، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى المدينة وهو يقول: آئبون تائبون عابدون لربنا حامدون! وغاب عن المدينة أربع عشرة ليلة [3]

سريّة عكاشة إلى الغمر[4]:

وفي ربـيع الأول سـنة ٦ هـ انتدب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عكاشة بن محصن في أربعين رجلا من أصحابه إلى بني أسد في ماء الغمر، ورغم أنهم أسرعوا، فقد نذر بهم بنو أسد فهربوا، ونزلت السريّة على مياههم وأصابت الطلائع من دلّهم على بعض ماشيتهم، ووجدوا مائتي بعير فغنموها وساقوها إلى المدينة [5].

سريّة محمد بن مسلمة إلى ذي القصّة[6]:

وفي ربـيع الآخـر سـنة ٦ هـ بعـث الـنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الـصحابي محمد بن مـسلمة في عشرة من الصحابة إلى بني ثعلبة وعوال، فكمن لهم القوم حتى ناموا، فقتلوهم كلهم وسقط محمد بن مسلمة بين أصحابه جريحا فظنوه ميّتا. وقد هيأ الله لـه بعـد ذلـك أحـد المسلمين الذي أنقذه وأطعمه وسقاه وحمله إلى المدينة، فبعث

---

(١) الواقدي، مغازي ٢/ ٥٣٥، ابن سعد، الطبقات ٢/ ٧٨ - ٨٠.

(٢) غـران بـضم أولـه: وادٍ بـين أَمَج وعسفان، وأمج يعرف اليوم بخليص وعسفان يبعد (٨٠) كيلو من مكة. معجم المعالم الجغرافية ٢٢٤ و٢٠٨.

(٣) الـواقدي، مغـازي ٢/ ٥٣٥، ابـن سـعد، الطبقات ٢/ ٧٩، ابن سعد، غزوات الرسول وسراياه، ١/ ٣٩.

(٤) الغمر: ماء لبني أسد على ليلتين من فيد الذي هو قلعة بطريق مكة.

(٥) ابن سعد، الطبقات ٢/ ٨٥ بدون إسناد، وانظر: خليفة بن خياط - تاريخ ص ٨٥.

(٦) موضـع علـى الطـريق مـن المدينـة إلى الـشام، لا يـبعد كـثيرا عـن المدينـة وهو منزل ثعلبة وعوال.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا عبيدة عامر بن الجراح في أربعين رجلا إلى مصارع القوم فلم يجدوا أحدا، ووجدوا نعما وشاء فساقوها غنيمة ورجعوا إلى المدينة [1].

سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم:

وفي ربيع الآخر سنة ٦ هـ بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سريّة عليها زيد بن حارثة، فورد الجموم [2]، فأصاب امرأة من مُزَيْنَة يقال لها: حليمة، فدلتهم على محلة من بني سليم أصابوا فيها نعما وشاء وأسري، فلما قفل زيد بما أصاب وهب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمزينية نفسها وزوجها [3].

سرية زيد بن حارثة إلى العيص [4]:

وفي جمادى الأولى سنة ٦ هـ بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيدا في مائة وسبعين راكبا من الصحابة ليتعرضوا لقافلة تجارية قرشية قادمة من بلاد الشام، فتمكنوا من احتوائها وما فيها، وغنموا فيها فضة كثيرة كانت لصفوان بن أميّة، وأسروا عددا ممن كان مع القافلة، منهم أبو العاص بن الربيع الذي استجار بزوجته زينب بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأجارته، وقبل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إجارتها ورد عليه ما أخذ منه [5]. وعاد أبو العاص إلى مكة حيث رد ما كان معه من أموال القوم وأماناتهم، ثم أعلن إسلامه في مكة، وهاجر إلى المدينة فرد عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زوجته زينب على نكاحها الأول [6].

سرية زيد بن حارثة إلى الطرف [7]:

وفي جمادى الآخرة سنة ٦ هـ بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيدا في خمسة عشر رجلا إلى بني ثعلبة بالطرف، فهرب القوم وكان بلغهم أن رسول الله

---

(١) الواقدي، مغازي ٣/ ٥٥١، ابن سعد، الطبقات ٢/ ٨٥.

(٢) بفتح الجيم وميمين بينهما واو -، وهو ماء وقيل: أرض لبني سُليم. والجموم: يبعد عن مكة من جهة الشمال قرابة ٣٠ كيلو وهي منطقة واسعة جداً. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢/ ١٦٣، ومعجم المعالم الجغرافية للبلادي، ص ٨٥.

(٣) ابن سعد، الطبقات ٢/ ٨٦ بدون إسناد.

(٤) العيص: بينها وبين المدينة أربع ليال.

(٥) ابن سعد، الطبقات ٢/ ٨٦.

(٦) ابن هشام، السيرة ٢/ ٣٦٨.

(٧) ماء قريب من المراض دون النخيل على مسافة قريبة من المدينة، انظر: ابن سعد، الطبقات ٢/ ٨٧، ياقوت، معجم ٤/ ٣١.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد سار إليهم، وأصابت السريّة نعما وشاء غنيمة، وعادوا إلى المدينة سالمين [1].

سرية زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى وادي القرى [2]:

اختلف أرباب المغازي والسير في في سبب هذه السرية، فقد ذكر ابن إسحاق، الذي أنَّ سببها كان سرية بعثها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل هذه السرية مباشرة، وبقيادة زيد بن حارثة - رضي الله تعالى عنه - نفسه إلى وادي القرى: "فلقي به بني فزارة[3] وأصيب بها ناسٌ من أصحابه، وانفلت زيد من بين القتلى. فلمَّا قدم زيد بن حارثة، نذر أنْ لا يمس رأسه غسل من جنابة حتى يغزو فزارة" [4].

وذكر الواقدي وابن سعد أنَّ زيد بن حارثة - رضي الله تعالى عنه - خرج "في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا كان دون وادي القرى لقيه ناس من فزارة، من بني بدر، فضربوه وضربوا أصحابه، وأخذوا ما كان معهم، ثُمَّ استبلَّ زيد[5]، وقدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبره، فبعثه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم" [6].

ولكن الراجح هو الرأي الأول الذي ذكره ابن إسحاق، فبالإضافة إلى كونه أقوى إسناداً مدعوماً بالواقع، فالمسلمون في تلك الفترةلم يفرضوا سلطانهم على تلك المنطقة بَعْدُ، حتَّى تصبح طريقاً سالكةً لتجارتهم إلى الشام، بل كانوا في

---

(١) الواقدي، مغازي ٢/ ٥٥٥، ابن سعد، الطبقات ٢/ ٨٧.

(٢) وادي القُرَى - بضم أوّله، وفتح ثانيه، والقصر - جمع قرية، وهو وادٍ بين المدينة والشام، من أعمال المدينة، وهو بين تيماء وخيبر، فيه قرى كثيرة، وبها سُمّي وادي القُرى، والنسبة إليه "واديّ"، ويُعْرَف وادي القُرى اليوم ب "العُلا" بضم العين ثُمَّ لام وألف من غير همزة، والنسبة إليه "عُلَوِيٌّ"، وهي مدينة عامرة شمال المدينة النبوية على قرابة "٣٥٠" ميلاً، كثيرة المياه والزرع والأهل، ويصُبُّ واديها في وادي الجزل، ثُمَّ يَصُبُّ الجزل في وادي الحمض "أضم"، وهي ملاصقة للحجر ديار ثمود، متّصلة بها اتّصالاً تامّاً، لا يفصلُ بينها وبين المدائن حدود ولا جبال.

(٣) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص ٨٣، القلقشندي، قلائد الجمان، ص ١١٣.

(٤) ابن سيد الناس، عيون الأثر ٢/ ١٤٢، ابن هشام، سيرة ٤/ ٦١٧، أبو نعيم دلائل ٢/ ٥٣٤، الحلبي، سيرة٢/ ١٨١، والزرقاني، شرح ٢/ ١٦٤.

(٥) استبلَّ: أي برأ.

(٦) الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٤، ابن سعد، طبقات ٢/ ٩٠.

موقف المواجهة مع القبائل القاطنة في تلك المنطقة خاصّةً وأنّها حليفة قوية ليهود خيبر الذين كان المسلمون يعُدُّون العُدَّة السريعة لمواجهتهم بعد الحديبية، وتوقيع الهُدنة مع قريش، نظراً لنشاطات زعمائهم المعادية للمسلمين ودورهم الكبير في تأليب الأحزاب في الخندق والذي شاركت فيه بعض تلك القبائل[1] القاطنة في تلك المنطقة بفعالية كبيرة[2].

وكانت أحداث تلك السرية في شهر رجب من السنة السادسة من الهجرة النبوية المباركة، إذ وصلت إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معلومات هامَّة عن تحركات مُعَادية تقوم بها امرأة من بني فزارة، ذات شأن فيهم، ومنْزلة ورئاسة يُقال لها أُمّ قرفة[3]، "قد جهَّزت ثلاثين راكباً من ولدها وولد ولدها، قالت: اقدموا المدينة فاقتلوا محمَّداً! فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم اثكلها بولدها**». وبعث إليهم زيد بن حارثة "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رأس سرية، لم تذكر الروايات قوتها، ولكنها كانت على ما يبدو قليلة العدد، "فالتقوا بالوادي[4]، وقُتِلَ أصحاب زيد "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ منهم ورد بن مرداس، وارتُثَّ[5] زيد بن حارثة من بين وسط القتلى"[6].

فلمَّا قدم زيد بن حارثة، نذر ألاَّ يمس رأسه غُسل من جنابة حتى يغزو فزارة، فلمَّا استبلَّ من جراحه بعثه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جيش إلى بني فزارة فيهم سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويقودهم أبو بكر الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكمنوا النهار وساروا الليل، ومعهم دليل لهم كما يذكر الواقدي[7].

---

(١) ذكرت الروايات التاريخية أنَّ من القبائل التي شاركت بقوة في غزوة الأحزاب: قبائل غطفان، وهي فزارة، وبنو مرة، وأشجع، وغيرها. انظر: ابن الجوزي: الوفا بأخبار المصطفى، ص ٦٩٢. وهذه القبائل جميعها تسكن تلك المنطقة وتشارك بحلف قديم مع اليهود في خيبر وما حولها.

(٢) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ٥٢.

(٣) هي فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزارية، التي جرى فيها المثل: "أمنع من أُمّ قِرْفة" لأنه كان يُعَلِّق في بيتها خمسون سيفاً لخمسين فارساً كلهم لها ذو محرم، كُنّيت بابنها قِرْفة، قتله النَّبِيُّ – صلى الله عليه وآله وسلم – فيما ذكر الواقدي، وذكر أنَّ سائر بنيها وهم تسعة قُتِلُوا مع طليحة يوم بزاخة. انظر: الروض الأنف، ٧/ ٥٢٨.

(٤) يعني وادي القرى.

(٥) رتُّ: بالبناء للمجهول، أي حمل من المعركة رثيثاً أي جريحاً وبه رمق.

(٦) ابن سيد الناس، عيون، ٢/ ١٤٢.

(٧) مغازي، ٢/ ٥٦٤.

قال سلمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلمَّا دنونا من الماء [1] أمرنا أبو بكر، فعرَّسنا [2]، قال: فلمَّا صلَّينا الصُّبح، أمرنا أبو بكر فشننا الغارة[3]، فقتلنا على الماء مَن قتلنا، "فكان شعارنا: أمت. أمت. قال: فقتلت بيدي سبعة أهل أبيات من المشركين، وأنظر إلى عنق من الناس فيهم الذراري فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فرميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلمَّا رأوا السهم وقفوا فجئت بهم أسوقهم، وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشع من أدم[4] معها ابنة لها من أحسن العرب، فسقتهم حتَّى أتيت بهم أبا بكر"[5].

ويجزم أهل المغازي أنَّ تلك المرأة هي أُم قرفة، وأنَّها قُتِلَت، وقُتِلَ بعض ولدها [6].

وذكر عروة أنَّ زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا قدم المدينة مع أهل السرية أقبل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك الليلة في بيتي، فقرع الباب، فخرج إليه يجر ثوبه حتى اعتنقه، وقبَّله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[7].

سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل:

وفي شعبان سنة ٦ هـ بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابي عبد الرحمن بن عوف على رأس سريّة إلى قبيلة كلب بدومة الجندل، وأمره أن يقاتل من كفر بالله، وبألّا يغل ولا يغدر ولا يقتل وليدا، يقول عبد الله بن عمر: دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الرحمن بن عوف فقال: تجهز فإني باعثك في سرية في يومك هذا، أو من غد إن شاء الله، قال ابن عمر: فسمعت ذلك فقلت: لأدخلن فلأصلين مع النبي الغداة، فلأسمعن وصيته لعبد الرحمن بن عوف، قال: فغدوت

---

(١) الحاضر الذي كانت تقيم عليه بنو بدر من فزارة، ربما كان في وادي القرى.
(٢) التعريس: النزول آخر الليل للراحة.
(٣) شن الغارة: أي فرّقها عليهم من كُلِّ جانب.
(٤) القشع: بقاف ثُمَّ شين معجمة ساكنة: النطع، وهو الفَرْو الخَلِق.
(٥) ابن هشام، سيرة ٤/ ٦١٧، الواقدي، مغازي٢/ ٥٦٥، ابن سعد، طبقات ٢/ ٩١، أبو نعيم، دلائل ٢/ ٥٣٥، الحلبي، سيرة ٣/ ١٨٠، الزرقاني، شرح٢/ ١٦٤.
(٦) ابن هشام، سيرة ٤/ ٦١٧، الواقدي، مغازي٢/ ٥٦٥، ابن سعد، طبقات ٢/ ٩١، أبو نعيم، دلائل ٢/ ٥٣٥، الحلبي، سيرة ٣/ ١٨٠، الزرقاني، شرح٢/ ١٦٤.
(٧) دلائل النبوة رقم (٤٢٦)، الذهبي، سير أعلام النبلاء ١/ ٢٢٦ - ٢٢٧، ابن هشام، السيرة النبوية ٢/ ٦١٧، ابن سعد الطبقات، ٢/ ٩٠.

فصليت فإذا أبو بكر وعمر، وناس من المهاجرين فيهم عبد الرحمن بن عوف، وإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دومة الجندل فيدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الرحمن: «**ما خلفك عن أصحابك؟**» قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السحر، فهم معسكرون بالجرف [1] وكانوا سبعمائة رجل، فقال: أحببت يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك وعليّ ثياب سفري، قال: وعلى عبد الرحمن بن عوف عمامة قد لفها على رأسه، قال ابن عمر: فدعاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأقعده بين يديه فنقض عمامته بيده، ثم عممه بعمامة سوداء فأرخى بين كتفيه منها، ثم قال: هكذا فاعتم يا ابن عوف. قال: وعلى ابن عوف السيف متوشحه، ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اغزُ باسم الله، وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله، لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدًا**»، قال ابن عمر: ثم بسط يده، فقال: «**يا أيها الناس، اتقوا خمسًا قبل أن يحل بكم: ما نقص مكيال قوم إلا أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يرجعون، وما نكث قوم عهدهم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السماء، ولولا البهائم لم يسقطوا، وما ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلط الله عليهم الطاعون، وما حكم قوم بغير آي القرآن إلا ألبسهم الله شيعًا، وأذاق بعضهم بأس بعض**»، قال: فخرج عبد الرحمن حتى لحق أصحابه فسار حتى قدم دومة الجندل، فلما حل بها دعاهم إلى الإسلام فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أول ما قدم يعطونه إلا السيف، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانيًا وكان رأسهم، فكتب عبد الرحمن إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبره بذلك، وبعث رجلاً من جهينة يقال له رافع بن مكيث، وكتب يخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قد أراد أن يتزوج فيهم، فكتب إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتزوج بنت الأصبغ تماضر، فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها، ثم أقبل بها وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف [2].

هذه السرية قد وجهت إلى أبعد مدى وصلت إليه الجيوش النبوية في الجزيرة العربية، فدومة الجندل قريبة من تخوم الشام، وهذا يدل علي أن الدولة الإسلامية بدأت تفكر أبعد من حدود الجزيرة العربية وتحديداً الامبراطورية الرومانية.

---

(١) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام.

(٢) الواقدي، المغازي ٢/ ٥٦٠، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٨٩، ابن هشام، السيرة ٤/ ٣٦٩.

ولقد اشتملت هذه الغزوة علي نموذج من نماذج آداب الحرب في الإسلام، فالحرب إذا كانت نوع من العنف والقسوة لدي جيوش الغير، إلا إنها بالنسبة للمسلمين الذين طهر الله تعالى قلوبهم من الغلِّ والحسد، وسيلة لتحقيق الحق والعدل وهي أمر عارض لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وحماية المحقين من المبطلين، وليس متأصلاً في نفوسهم، ولذلك طالما كانت محفوفة بأخلاقيات الإنسانية التي تجعل الإنسان الواحد جامعاً بين منتهى القوة والبطش ومنتهى الرحمة والعطف، فنهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدالرحمن بن عوف عن الغلول وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، ونهاه عن الغدر في العهود وعن قتل الولدان.

سرية علي بن أبي طالب إلى فدك[1]:

لم تكن منطقة عمليات السرايا قرية فدك ذاتها، وإنَّما المنطقة المحيطة بها، والتي كانت تسكنها قبيلة بني مرّة، وقبيلة بني سعد بن بكر، ولكن باعتبار قربها من فدك تجوَّز أهل المغازي بنسبتها إليها".

وكانت هذه السرية في شعبان سنة ست من مهاجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2]".

ويمكن القول أن هذه السرية ضمن الجهود المبذولة من النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتحطيم الحلف الخيبري الذي كان قائماً بين يهودها والقبائل المحيطة بخيبر، والذين كان لهم دورٌ بارزٌ في غزوة الأحزاب، وذلك ضمن الاستراتيجية العسكرية التي وضحها بعد هزيمة الأحزاب بقوله: «**الآن نغزوهم ولا يغزونا**».

فبينما كان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طريقه إلى خيبر وصلت إليه معلومات مفادها أنَّ هناك تحرُّكات تحشديَّة معادية للمسلمين، يقوم بها رجل من بني سعد بن بكر يُدْعَى: "وَبَر بن عُليم، في جمع من قومه بني سعد، بالقرب من فدك، وذلك لمناصرة يهود خيبر ضد المسلمين، وأنَّهم بصدد الاتفاق معهم على إمدادهم بقوَّةٍ منهم مقابل جزء من تمر خيبر يُجْعَل لهم".

وكعادته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في استراتيجيته المتبعة دائماً مع أعدائه وبخاصَّةً الأعراب، في مباغتتهم وضربهم قبل استكمال تحشُّدهم، وتطوُّر استعداداتهم، سارع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تجهيز سرية، عبارة عن دورية قتال تعرُّضية[3] قوَّتها مائة

(١) فدك: قرية بشمال الحجاز قرب خيبر، على بعد يومين، وقيل: ثلاثة من المدينة.
(٢) المغازي ٢/ ٥٦٢ - ٥٦٣، الطبقات ٢/ ٨٩ - ٩٠.
(٣) التعرُّض: هو التوجه بصورة عامَّة إلى طلب الخصم بقصد ملاقاته ومقاتلته في ساحات

رجل بقيادة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فسار الليل، وكمن النَّهار، حتَّى انتهى إلى الهمج "[1]، فأصاب عيناً، فقال: "ما أنتَ؟ هل لك علم بما وراءك من جمع بني سعد؟ قال: "لا علم لي به، فشدُّوا عليه فأقرَّ أنه عين لهم بعثوه إلى خيبر، يعرض على يهود خيبر نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم، ويقدمون عليهم، فقالوا له: "فأين القوم؟ قال: "تركتهم وقد تجمَّع منهم مائتا رجل، ورأسهم وبَر ابن عُلَيْم". قالوا: "فسر بنا حتى تدلُّنا". قال: "على أن تُؤَمِّنوني". قالوا: "إن دللتنا عليهم وعلى سرحهم أمَّنَّاك، وإلاَّ فلا أمَانَ لك". قال: "فذاك، فخرج بهم دليلاً لهم "[2]. بعد أن كان عيناً عليهم، فسار بهم في فدافد[3]، وآكام[4]، حتى ساء ظنهم به، واعتقدوا أنه ربَّما كان يخدعهم، حتى أفضى بهم إلى سهل من الأرض "فإذا نعَم كثير، وشاء[5]، فقال: "هذه نَعمهم وشاؤهم، فأغاروا عليه فضموا النعم والشاء، قال: "أرسلوني". قالوا: "حتى نأمن الطلب، ونذر بهم الراعي رعاء الغنم والشاء، فهربوا إلى جمعهم فحذَّروهم فتفرَّقوا "[6] وهربت بنو سعد بالظَّعن، ورأسهم وَبَر بن عُلَيْم "[7]".

فقال الدليل للقائد علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "علامَ تحبسني؟ قد تفرَّقت الأعراب وأنذرهم الرعاء، قال علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ليس بعد، فإنَّا لم نبلغ معسكرهم، فانتهى بهم إليه فلم ير أحداً، فأرسلوه وساقوا النعم والشاء، النعم خمسمائة بعير، وألفا شاة[8] فعزل علي صفيّ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [9] لقوحاً[10] تُدْعَى الحفذة، ثُمَّ عزل الخُمُس، وقسَّم سائر الغنم على أصحابه"، ثُمَّ مكث ثلاثاً

القتال. انظر: العقيد محمَّد صفاء، الحرب ٢١، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ١٢٣.

(١) الهَمَج: ماء وعيون عليه نخل. الحموي، معجم ٥/ ٤١٠، السمهودي، وفاء ٤/ ١٣٢٧.

(٢) الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٢.

(٣) الفدفد: الفلاة، والمكان الصّلب الغليظ والمرتفع. (قاموس: الفدفد).

(٤) الأكمة - محرَّكة: التل من القف من حجارة واحدة، أو هي دون الجبال، أو الموضع يكون أشدّ ارتفاعاً مِمَّا حوله، وهو غليظ لا يبلغ أن يكون حجراً. (القاموس: الأكمة).

(٥) الشاء: جمع شاة.

(٦) الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٢.

(٧) ابن سعد، طبقات، ٢/ ٩٠.

(٨) الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٢.

(٩) الصَّفِيُّ: ما كان خالصاً للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١٠) اللقوح: الناقة الحلوب. (القاموس: لقوح).

أوقَعَ أثناءَها الرُّعْبَ في قلوب الأعراب"[1].

يُحَدِّثنا أحد شهود العيانفيقول: إني لبوادي الهَمَج، إلى يديع[2]، ما شعرت إلاَّ ببني سعد يحملون الظُّعُن وهم هاربون، فقلت: "ما دهاهم اليوم؟ فدنوت إليهم فلقيت رأسهم وبَر بن عُلَيم، فقلت: "ما هذا المسير؟ قال: "الشرُّ، سارت إلينا جموع محمَّد، وما لا طاقة لنا به، قبل أن نأخُذَ للحرب أُهبتها، وقد أخذوا رسولاً لنا بعثناه إلى خيبر، فأخبرهم خبرنا، وهو صنَعَ بنا ما صَنَع". قلت: "ومَن هو؟ قال: "ابن أخي، وما كُنَّا نعُدّ في العرب فتىً واحداً أجمع قلب منه".

فقلت: "إني أرى أمر محمَّد قد أمن وغلظ، أوْقَعَ بقريش فصنع بهم ما صنع ثُم أوقع بأهل الحصون بيثرب، قينُقاع، وبني النَّضير، وقريظة، وهو سائرٌ إلى هؤلاء بخيبر". فقال لي وبَر: "لا تخش ذلك". إنَّ بها رجالاً، وحُصُوناً منيعة، وماءً واتناً[3] لا دنا منهم محمَّدٌ أبداً، وما أحراهم أن يغزوه في عُقْرِ داره". فقلت: "وترى ذلك؟ قال: "هو الرأي لهم"[4]".

وهكذا نجح عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مهمَّته نجاحاً باهراً وقدم المدينة ولم يلق كيداً"[5].

أوضحت هذه السرية، والسرايا السابقة بعض الاستراتيجيات العسكرية التي كان يطبقها الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أعدائه، وهي:

ما ورد أنَّ سبب السرية هو تلك الأخبار التي بلغت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تحرُّكات بني سعد بن بكر المعادية للمسلمين، ذلك يعطينا دلالة واضحة أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتتبع أخبار الأعداء أولاً بأول".

ومثل هذه الروايات تؤكِّد لنا أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت لديه شبكة شبه منظَّمة من العيون، مبثوثة بين أعدائه، جعلته دائماً وأبداً في الصورة معهم، يعرف سكناتهم وحركاتهم أولاً بأول، مِمَّا مكَّنه كثيراً من القضاء على مخطَّطاتهم العدوانية ضد المسلمين ووئدها في مهدها قبل أن تستفحل، مِمَّا وفَّر على المسلمين الكثير من الجهد، وحقن الكثير من الدماء التي كانت ستسيل لو تمكَّن

(١) ابن سعد، طبقات، ٢/ ٩٠.

(٢) يديع: أرض من فدك، وهي مال للمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي، ويذكر البلاذري أنها تُسَمَّى اليوم: (الحويط). (البكري: معجم ٤/ ١٤٤، البلاذري: رحلات ١٩).

(٣) وتن الماء: أي: دام ولم ينقطع. (الصحاح ٢٢١٢).

(٤) الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٣.

(٥) ابن سعد، طبقات، ٢/ ٩٠، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ١٢٦.

أولئك الأعداء من استكمال مخطّطاتهم تلك وتنفيذها ضد المسلمين، وذلك ما كان يصبو إليه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جهاده مع أعدائه، لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان حريصاً أشدَّ الحِرْصِ على بلوغ أهدافه السامية من ذلك الجهاد المُقَدَّس بأقلِّ قدرٍ ممكنٍ من الخسائر، ودونما إراقة دماء كثيرة".

إلاَّ ما كان من بعض أولئك الأعداء الذين كانوا يشكلون تهديداً قوياً ومستمراً للمسلمين بقواهم العسكرية والسياسية، والتي كانت تشكل حاجزاً قوياً أمام الناس لاعتناق ما يريدون بحرِّية، فكان لابُدَّ من الإثخان في تلك القوى المسيطرة لإضعافها والقضاء على هيمنتها في المنطقة".

إنَّ نظام المخابرات تفتخر به اليوم الدول المتقدمة مادياً، وله أولوية كبيرة في جيوشها المتطورة، وتمارسه بأساليب غير حضارية ارتبطت بالظلم والعدوان والغدر".

ولكنَّ الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان له قصب السَّبْق فيه، كما أنه مارسه في نطاق الحرب الفروسية المشرفة، دون المساس بالأخلاقيات والمُثُل العُليا".

كما أن تحرُّك هذه السرية في مسير ليلي إلى أرض العدو، وهذه استراتيجية ذكية تزوَّد بها قائد السرية من مُبْتَكِرِ الاستراتيجيات العسكرية، رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي استطاع بها تحقيق مبدأ الكتمان مع أعدائه، حرمهم من معرفة نواياه، واتجاه حركة قوَّاته".

لقد كانت معظم القبائل التي غزاها النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعث إليها سراياه قبائل "قوية ولها حلفاء وأنصار، فلو أنها عرفت بمسيره لسارعت بالاستعداد للقائه ولاستعانت عليه بحلفائها وأنصارها لمعاونتها يوم اللقاء، ولكن عناية الله أولاً، ثُمَّ المسير الليلي حال بينها وبين ذلك كله، فاستطاع النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقواته القليلة بالنسبة لقوات تلك القبائل، أن يتغلَّب عليها ويقضي على نياتها العدوانية، ويُلْقِي الرُّعْبَ في نفوسها ونفوس القبائل الأخر التي سمعت بانتصار المسلمين"[1]".

أيضاً ما ورد في هذه السرية والسرايا قبلها من شن الغارة على الأعداء ومباغتتهم في ديارهم في غفلةٍ منهم، وتلك استراتيجيةٌ اتَّبعها الرسول

(١) خطّاب، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائد، ص ٢١٦ - ٢١٧، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ١٢٦.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع نوعٍ معيَّن من الأعداء، وهم الأعراب، حيث كان دائماً يترصَّد أخبارهم من خلال شبكة العيون المبثوثة في ديارهم، فكان دائماً يباغتهم في ديارهم قبل استكمال جاهزتهم واستعدادهم، فالأعراب أشداء إذا ما استعدوا جيداً للقتال، وانتظمت صفوفهم فيه، عندها تكون مقاومتهم أكبر، وقتالهم أشرس، كما أنَّهم يستطيعون وبسرعة فائقة حشد قوَّة إمدادات كبيرة يتمكنون بها من الإطباق على أعدائهم وحصرهم من كُلِّ الجهات، وقد عرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك من خلال تجارب سابقة معهم في الرجيع، وبئر معونة، وسرية زيد بن حارثة - رضي الله تعالى عنه - الأولى إلى بني فزارة، وغيرها".

لذلك فإنَّ في شَنِّ الغارة عليهم ومباغتتهم قبل ذلك، ولو من قوة مهاجمة صغيرة تُفْقِدهم اتزانهم، وتبُثُّ الرُّعْبَ في قلوبهم[1]، وتثير الاضطراب والفوضى في صفوفهم، فيسهل حين ذاك السيطرة عليهم وهزيمتهم، كما حدث في هذه السرية".

وفي الاستيلاء على أموال الأعراب التي كانت في غالبها من الماشية والإبل، إضعافٌ لهم اقتصادياً، لأنَّها تعدّ عصب حياتهم اليومية، لاعتمادهم عليها كثيراً، كما أنَّ في ذلك تحفيزاً للمسلمين وتشجيعاً لهم للغزو في سبيل الله لإصابة الغنائم الدنيوية العاجلة، إضافةً لما رُصِدَ لهم من الأجر العظيم عند الله، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أنَّ ذلك يعدّ دافعاً وهدفاً من أهداف الجهاد في سبيل الله بقدر ما هو ممارسة المسلمين لحقهم المشروع في الغنائم التي أحلَّها الله لهذه الأُمَّة واختصَّها به دون غيرها من الأُمم السابقة".

كما أنَّ ذلك يُعَدُّ تمشياً مع عادة قديمة متَّبعة لدى العرب في حروبهم في الجاهلية أبقى عليها الإسلام بعد تنظيمها وتقنينها وفق أنظمة الشريعة الإسلامية"[2].

وإلى جانب هذه السرايا تذكر المصادر الخاصة بالمغازي والسير معلومات متضاربة عن «سرية زيد بن ثابت إلى بني فزارة»[3] ولم يرد عن هذه السرية مايثبت

---

(١) المباغتة أقوى العوامل وأبعدها أثراً في الحرب، وتأثيرها المعنوي عظيم جداً، وتأثيرها من الناحية النفسية يكمن فيما تحدثه من شللٍ متوقعٍ في تفكير القائد الخصم. انظر: خطّاب، الرسول القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ص ٤٥١.

(٢) غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، ص ١٣٠.

(٣) ابن سعد، الطبقات ٢/ ٨٩، وانظر، الواقدي - المغازي ٢/ ٥٦٤، الطبري، تاريخ ٢/ ٦٤٣ وأورد ذلك الإمام مسلم في الصحيح ٣/ ١٣٧٥ - ٧٦ (حديث ١٧٥٥)،

في الصحيحين ، والتناقض والتضارب كبير في مرويات كتب المغازي والسير بشأنها .

سرية عبدالله بن رواحة إلى اليُسير بن رِزَام اليهودي:

بعد أن نجح المسلمون في القضاء على أبي رافع زعيم يهود خيبر بعد حُيي بن أخطب اختارت اليهود رجلا شجاعًا منهم ليكون أميرا عليهم هو اليُسير بن رزام[1] .

وما أن تقلد اليسير مهام منصبه كزعيم اختير تقديرًا لشجاعته حتى أصرَّ على أن يثبت لهم أنه أهل لهذا الاختيار فقرر إكمال مهمة سلفه والقيام بمحاولة جديدة لحشد اليهود وحلفائهم غطفان وتوجيه طاقاتهم لمباغتة المسلمين في عقر دارهم[2] .

ولكن عين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تنام عن أعداء الإسلام المتربصين ولا تغفل عن تحركاتهم العدوانية ضد قاعدته الحصينة .

حيث وصلته الأخبار من أحد عيونه في خيبر بنوايا اليُسير ونشاطاته المشبوهة ضد المسلمين ، وأراد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستوثق من تلك الأخبار[3]

فأرسل دورية استطلاع منطقة صغيرة إلى خيبر قوتها ثلاثة أفراد بإمرة قائد خيبر بمنطقة خيبر وأهلها هو عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

الإمام أحمد (عنه ابن كثير في البداية ٤/ ٢٦٤) ، والبيهقي – دلائل النبوة ٤/ ٢٩٠ ، ورواية ثانية في الطبري ، تاريخ ٢/ ٦٤٣ – ٦٤٤ رواية مغايرة يرد فيها أن أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – كان أميرا لسرية إلى بني فزارة علما بأن رواية أهل المغازي مضطربة من ناحية المتن ومناقضة لأوامر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشأن الأسرى .

(١) انظر: أبا نعيم ، دلائل ، ٢/ ٥١٧ ، وابن سيد الناس ، عيون ، ٢/ ١٦٤ ، البيهقي ، دلائل ، ٤/ ٢٩٤ ، ابن هشام ، سيرة ، ٣/ ٦١٨ .

(٢) ذكر الواقدي أنه قام في اليهود فقال: إنه والله ما سار محمد إلى أحد من اليهود إلا بعث أحدا من أصحابه فأصاب منهم ما أراد ، ولكني أصنع ما لا يصنع أصحابي ، فقالوا: ما عسيت أن تصنع ما لم يصنع أصحابك؟ ، قال: أسير في غطفان فأجمعهم ، فسار في غطفان ، فجمعها ، ثم قال: يا معشر اليهود ، نسير إلى محمد في عقر داره ، فإنه لم يُغز أحد في داره إلا أدرك منه عدوه بعض ما يريد ، قالوا: نعم ما رأيت ، انظر: الواقدي ، مغازي ، ٢/ ٥٦٦ .

(٣) ذكر الواقدي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خارجة بن حسيل الأشجعي ، فاستخبره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما وراءه فقال: تركت أسير بن رزام يسير إليك في كتائب اليهود . انظر: الواقدي ، مغازي ، ٢/ ٥٦٦ – ٥٦٧ .

انطلقت الدورية في رمضان ووصلت خيبر سرًّا وهناك وزع القائد أفرادها على حصونها الرئيسية – الشق، والنطاة، والكتيبة.

فدخلوا مع الناس يسمعون منهم ويرون بأعينهم حال أهل خيبر وما يتكلمون به، خلال أيام رجعوا بعدها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتقرير مفصل يؤكد المعلومات السابقة، فقرر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثانية إلى خيبر، ولكن هذه المرة على رأس[1] فرقة مغاوير تطوعية قوتها ثلاثون رجلا من بينهم عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للإفادة من شجاعته وخبرته في هذا المجال.

و"في شوال سنة ست من مهاجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[2] انطلقت السرية إلى هدفها في خيبر بعد الاتفاق على خطة استدراجية مغايرة تماما لخطة الفرقة الخزرجية التي قتلت أبا رافع، ومشابهة لخطة الأوسية التي قتلت كعب بن الأشرف، وكانت ترتكز أساسا على تقرير الدورية الاستطلاعية الذي ورد فيه معلومات دقيقة عن اليُسير وشخصيته فوضعت الخطة بناء على ذلك "فأتوه فقالوا: إنا أرسلنا إليك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليستعملك على خيبر"[3].

تردد اليُسير في البداية، ولكنهم ما زالوا به يغرونه ويمنُّونه حتى طمع فيما قالوا، وشاور اليهود فخالفوه في الخروج، ولكنه أصرَّ عليه فخرج في رفقة ثلاثين يهوديًّا لحراسته ركب كل منهم مع رديف من المسلمين أفراد السرية، وحمل عبد الله بن أنيس اليُسير على بعيره، "فلما بلغوا قرقرة ثبار[4] وهي من خيبر على ستة أميال ندم اليُسير فأهوى بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس، ففطن له عبد الله، فزجر بعيره، ثم اقتحم يسوق بالقوم، حتى إذا استمكن من اليُسير ضرب رجله

---

(١) ذكر عروة في روايته أن قائد السرية هو عبد الله بن عتيك. انظر أبا نعيم، دلائل، ٢/ ٥١٧، والبيهقي، دلائل، ٤/ ٢٩٣.

(٢) الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٦، وابن سعد، طبقات، ٢/ ٩٢ واللفظ له.
وقد أوردها البيهقي وابن القيم بعد فتح خيبر. وانظر البيهقي، دلائل (٤/ ٢٩٠ – ٢٩٣)، وابن القيم، زاد (٣/ ٣٥٩ – ٣٦٠).

(٣) أبا نعيم، دلائل، ٢/ ٥١٧.

(٤) قرقرة ثبار، قاع جنوب خيبر بين الحرة والصهباء المعروفة اليوم باسم جبل عطوة، على ستة أكيال من خيبر يقسمه الطريق إلى المدينة، ويسمى اليوم قعقران.
البلادي، معجم، ص٢٥٣، وقد ذكر البكري أنها تسمى قرقرة الكدر. البكري، معجم (٣/ ١٠٦٦).

فقطعها ، واقتحم اليُسير وفي يده مخرش[1] من شوحط[2] فضرب به وجه عبد الله فشجه شجة مأمومة[3] ، وانفكأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله ، غير رجل واحد من اليهود أعجزهم شدًّا ، ولم يصب من المسلمين أحد وقدموا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبصق في شجة عبد الله بن أنيس فلم تقح ، ولم تؤذه حتى مات[4] .

لقد كانت الخطة النبوية هي محاولة إيقاف نهر الدم بين اليهود والمسلمين ابتداءً ، فقد كان دور عبدالله بن رواحة في هذا الاتجاه ، غير أن الحقد اليهودي الذي أشرب قلوبهم والسم الذي ينفثونه على المسلمين ، هو الذي غلب آخر الأمر ، وأفسد الخطة كلها ، فقد حاولوا الغدر بالمسلمين فوقعت الدائرة عليهم .

والحرب إن لم تكن غليظة وشديدة ، فلن تحسم المواجهة مع العدو ، وستجعل الحرب تفنى كل شيء وتأكل كل شيء ، فلابد من بث الرهبة والرعب في قلب العدو ، ولابد من الشدة معه حين لايجدي الحوار أو المناقشة ، ولابد من الغلظة التي تشعر العدو أن من يقاتله لايخشى في الله لومة لائم[5] .

سرية عمرو بن أمية الضمري إلى أبي سفيان بن حرب:

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضَّمْرِي مع سلمة بن أبي سلمة ، في شوال سنة ٦ هـ . وذكروا أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبي سفيان ؛ لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابياً لاغتيال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بيد أن المبعوثين لم ينجحا في الاغتيال ، لاهذا ، ولا ذاك . فقد ذكر المؤرخون: أن أبو سفيان بن حرب كان قد قال لنفر من قريش بمكة: ما أحد يغتال محمدا ، فإنه يمشي في الأسواق ، فندرك ثأرنا ، فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله ، وقال له: إن أنت قويتني خرجت إليه حتى أغتاله ، فإني هاد بالطريق خريت ، ومعي خنجر

---

(١) بميم مكسورة فخاء معجمة ساكنة فراء مفتوحة: عصا معوجة الرأس .

(٢) الشوحط: شجر تتخذ منه القسي . (القاموس ، واللسان ، والصحاح: "شحط") .

(٣) الشجة المأمومة: التي تبلغ أم الرأس وهي الجلدة التي تجمع الدماغ . الصحاح مادة "شج" ، والصالحي ، سبل (٦/ ١٨٠) .

(٤) أبو نعيم ، دلائل ، ٢/ ٥١٧ ، البيهقي ، دلائل ، ٤/ ٢٩٣ ، وابن سيد الناس ، عيون ، ٢/ ١٦٤ ، ابن هشام ، سيرة ، ٣/ ٦١٨ ، ابن سعد ، طبقات ، ٢/ ٩٢ ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص ١٨٥ .

(٥) التربية القيادية ، ٤/ ١٨٩ إلى ١٩٢ ، السيرة النبوية – دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، ٢ / ٣٧٥ .

مثل خافية النسر، قال: أنت صاحبنا، فأعطاه بعيرا ونفقة، وقال: اطو أمرك، فإني لا آمن أن يسمع هذا أحد فينمه إلى محمد، قال العربي: «لا يعلم به أحد». فخرج ليلا على راحلته [1] فسار خمسا، وصبح ظهر الحرة صبح سادسة، ثم أقبل يسأل عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى أتى المصلى، فقال له قائل: قد توجه إلى بني عبد الأشهل، فخرج يقود راحلته حتى انتهى إلى بني عبد الأشهل، فعقل راحلته، ثم أقبل يؤم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوجده في جماعة من أصحابه يحدث في مسجدهم، فدخل، فلما رآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأصحابه: «**إن هذا الرجل يريد غدرا، والله حائل بينه وبين ما يريد**». فوقف فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنا ابن عبد المطلب**»، فذهب ينحني على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كأنه يساره، فجبذه [2] أسيد بن الحضير وقال له: تنح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجبذ بداخلة إزاره [3]، فإذا الخنجر، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذا غادر**»، وسقط في يدي العربي وقال: دمي دمي يا محمد، وأخذ أسيد يلبب، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اصدقني: ما أنت؟ وما أقدمك؟ فإن صدقتني نفعك الصدق، وإن كذبتني فقد أطلعت على ما هممت به**»، قال العربي: فأنا آمن؟ قال: «**فأنت آمن**»، فأخبره بخبر أبي سفيان وما جعل له، فأمر به فحبس عند أسيد، ثم دعا به من الغد فقال: «**قد أمنتك فاذهب حيث شئت، أو خير لك من ذلك**»، قال: وما هو؟ قال: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله**»، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، والله يا محمد ما كنت أفرق الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي، وضعفت نفسي، ثم اطلعت على ما هممت به مما سبقت به الركبان، ولم يعلمه أحد، فعرفت أنك ممنوع، وأنك على حق، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان، فجعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتبسم، وأقام أياما ثم استأذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخرج من عنده، فلم يسمع له بذكر. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمرو بن أمية الضمري ولسلمة بن أسلم بن حريش: «اخرجا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب، فإن أصبتما منه غرة فاقتلاه»، قال عمرو: فخرجت أنا وصاحبي حتى أتينا بطن يأجج فقيدنا بعيرنا، فقال لي صاحبي:

---

(١) الراحلة: البَعيرُ القويّ على الأسفار والأحمال، ويَقَعُ على الذكر والأنثى.

(٢) الجبذ: الشد والجذب بقوة.

(٣) الإزار: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن.

يا عمرو ، هل لك في أن نأتي مكة ونطوف بالبيت سبعا ، ونصلي ركعتين؟ فقلت: إني أعرف بمكة من الفرس الأبلق ، وإنهم إن رأوني عرفوني ، وأنا أعرف أهل مكة ، إنهم إذا أمسوا انفجعوا بأفنيتهم [1] ، فأبى أن يطيعني ، فأتينا مكة فطفنا سبعا وصلينا ركعتين ، فلما خرجت لقيني معاوية بن أبي سفيان فعرفني وقال: عمرو بن أمية ، واحزناه ، فأخبر أباه ، فنيد بنا أهل مكة فقالوا: ما جاء عمرو في خير ، وكان عمرو رجلا فاتكا في الجاهلية ، فحشد أهل مكة وتجمعوا ، وهرب عمرو وسلمة ، وخرجوا في طلبهما ، واشتدوا في الجبل ، قال عمرو: فدخلت غارا فتغيبت عنهم ، حتى أصبحت ، وباتوا يطلبون في الجبل ، وعمى الله عليهم طريق المدينة أن يهتدوا لراحلتنا ، فلما كان الغد ضحوة أقبل عثمان بن مالك بن عبيد الله التيمي يختلي لفرسه حشيشا ، فقلت لسلمة بن أسلم: إن أبصرنا أشعر بنا أهل مكة ، وقد أقصروا عنا ، فلم يزل يدنو من باب الغار حتى أشرف علينا ، وخرجت فطعنته طعنة تحت الثدي بخنجري ، فسقط وصاح وأسمع أهل مكة ، فأقبلوا بعد تفرقهم ، ودخلت الغار فقلت لصاحبي: لا تحرك ، وأقبلوا حتى أتوا عثمان بن مالك فقالوا: من قتلك؟ قال عمرو بن أمية ، قال أبو سفيان: قد علمنا أنه لم يأت بعمرو خير ، ولم يستطع أن يخبرهم بمكاننا كان بآخر رمق [2] ومات ، وشغلوا عن طلبنا بصاحبهم يحملونه ، فمكثنا ليلتين في مكاننا ثم خرجنا ، فقال صاحبي: يا عمرو بن أمية ، هل لك في خبيب بن عدي ننزله؟ فقلت له: أين هو؟ قال: هو ذاك مصلوب حوله الحرس ، فقلت: أمهلني وتنح عني ، فإن خشيت شيئا فانج إلى بعيرك فاقعد عليه ، وأت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره الخبر ، ودعني فإني عالم بالمدينة ، ثم اشتددت عليه حتى حللته ، فحملته على ظهري ، فما مشيت به إلا عشرين ذراعا حتى استيقظوا ، فخرجوا في طلب أثري ، فطرحت الخشبة ، فما أنسى وقعها دب ، يعني صوتها ، ثم أهلت عليه من التراب برجلي ، فأخذت بهم طريق الصفراء ، فأعيوا فرجعوا ، وكنت لا أدرك مع بقاء نفس ، فانطلق صاحبي إلى البعير فركبه ، وأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره ، وأقبلت حتى أشرفت على الغليل غليل ضجنان ، فدخلت في غار فيه معي قوس وأسهم وخنجر ، فبينا أنا فيه إذ أقبل رجل من بني بكر من بني الدئل أعور طويل يسوق غنما ومعزى ، فدخل علي الغار فقال: من الرجل؟ فقلت: من بني بكر ، فقال:

---

(١) الفناء: الساحة في الدار أو بجانبها .

(٢) الرمق: بقية الروح وآخر النفس .

وأنا من بكر، ثم اتكأ فرفع عقيرته [1] يتغنى يقول:

فلست بمسلم ما دمت حيا ::: ولست أدين دين المسلمينا

فقلت في نفسي: والله إني لأرجو أن أقتلك، فلما نام قمت إليه، فقتلته شر قتلة قتلتها أحدا قط، ثم خرجت حتى هبطت، فلما أسهلت في الطريق إذا رجلان بعثتهما قريش يتجسسان الأخبار، فقلت: استأسرا، فأبى أحدهما، فرميته فقتلته، فلما رأى ذلك الآخر استأسر، فشددته وثاقا [2]، ثم أقبلت به إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما قدمت المدينة رآني صبيان وهم يلعبون، وسمعوا أشياخهم يقولون: هذا عمرو، فاشتد الصبيان إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبروه، وأتيته بالرجل قد ربطت إبهاميه بوتر قوسي، فلقد رأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضحك، ثم دعا لي بخير، وكان قدوم سلمة قبل قدوم عمرو بثلاثة أيام [3].

سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين:

في شوال من العام السادس الهجري قدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رهط من الأعراب من عُكَل [4] وعرينة [5]، وكان هؤلاء الأعراب بهم هزال شديد من الجوع [6] "فبايعوه على الإسلام" [7] "ثم قالوا: يا رسول الله آونا وأطعمنا".

فأنزلهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصفة [8] وأكرمهم [9]، ونظرا لكونهم كانوا بادية أهل ضرع، ولم يكونوا أهل ريف [10] - كما ذكروا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [11] - لم يستطيعوا التأقلم مع جو المدينة وهوائها، فأخرجهم

---

(١) العقيرة: الصوت.

(٢) الوثاق: ما يُشد به كالحبل ونحوه.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي، ٣/ ٤٠٩، ابن سعد، الطبقات ٢/ ٩٣ - ٩٤، الطبري، تاريخ ٢/ ٥٤٢.

(٤) عكل: قبيلة من تيم الرباب.

(٥) عرينة: حي من بجيلة.

(٦) ابن حجر، فتح (٨/ ٣٣٧)، عبد الرزاق، المصنف (١٠/ ١٠٦).

(٧) ابن حجر، فتح (١٢/ ٢٣٠).

(٨) الصفة: مكان في مؤخر المسجد النبوي مكان القبلة الأولى، ظُلل وأُعد لنزول الغرباء والمساكين وضعفاء المسلمين ممن لا مأوى له، وإليها ينسب أهل الصفة. انظر: أبا نعيم، الحلية (١/ ٣٢٠)، السمهودي، وفاء الوفاء (٢/ ٤٥٣ - ٤٥٤.

(٩) ابن حجر، فتح (١٢/ ٢٣٠).

(١٠) أي كانوا أهل ماشية ولم يكونوا أهل زرع.

(١١) ابن حجر، فتح (١٠/ ١٧٨)، وابن جرير الطبري، تفسير (٤/ ٢٠٦).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة إلي إبل الصدقة حول المدينة فشربوا من ألبان الإبل فصحُّوا"[1]، فعَدَوا على الراعي فقتلوه - بعد أن مثَّلوا به[2] وهربوا بالإبل "فجاء الخبر في أول النهار"[3] إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعلى وجه السرعة، قام بتجهيز دورية قتالية تعقُّبية، قوتها عشرون شابًّا أنصاريًّا وأسند القيادة فيها إلى كرز بن جابر الفهري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وزوَّدهم بقائف لاقتفاء الأثر[4]، اختزالا للجهد والوقت، لأن إهدارهما لا يتناسب مع الحالة الأمنية التي تتطلب سرعة القبض على هؤلاء المجرمين المفسدين في الأرض، والاقتصاص منهم فورا وبحزم؛ نتيجة ما قاموا به من إخلال وزعزعة بالأمن، وغدر وخيانة ونكران للجميل، إضافة إلى ارتدادهم عن الإسلام.

انطلقت الدورية، يتقدمُّها القائف، وكما هو مخطط له تم القبض على العصابة في وقت وجيز جدًّا "فما ترجَّل النهار حتى أتى بهم، فأمر بمسامير فأحميت فكحلهم، وقطع أيديهم وأرجلهم وَمَا حَسَمَهم، ثم أُلقوا في الحرة يستسقون، فما سقوا حتى ماتوا"[5].

قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فرأيت الرجل منهم يكدم[6] الأرض بلسانه حتى يموت"[7].

وقد ذكر بعض أهل العلم أن الله تعالى أنزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ

---

(١) ابن حجر، فتح (١٢/ ٢٣٠).

(٢) ذكر أصحاب المغازي: أنهم ذبحوه وغرزوا الشوك في عينيه. انظر: ابن هشام، سيرة، ٤/ ٤٦١، الواقدي، مغازي، ٢/ ٥٦٩، ابن سعد، طبقات، ٢/ ٩٣، وزاد "أنهم قطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات".
ابن كثير، تفسير، ٢/ ٥٠، والهيثمي، مجمع، ٦/ ٢٩٤.

(٣) ابن حجر، فتح، ١/ ٣٣٥.

(٤) والقايف: بالقاف والتحتية، الذي يتتبع الآثار ويعرفها ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه، والجمع: القافة.

(٥) ابن حجر، فتح، ١٢/ ١١١.

(٦) كدمه ويكدمه: عضَّه بأدنى فمه.

(٧) ابن حجر، فتح، ١٠/ ١٤١، وخبر السرية صحيح متفق عليه. فقد أخرجه البخاري في صحيحه في مواطن عدة. انظر ابن حجر، فتح (١/ ٣٣٥، ٦/ ١٥٣، ١٠/ ١٤١ - ١٤٢، ١٢/ ١٠٩ - ١١١ - ١١٢، وأخرجه مسلم أيضا في صحيحه. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (١١/ ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧)، أبو داود، سنن (٤/ ٥٣١ - ٥٣٢ - ٥٣٤ - ٥٣٥ - ٥٣٦.

﴿الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣] .

وقد يتصور البعض أن هذا العقاب كان جائرا وشديدا ، لكن بالنظر إلى ما قام به هؤلاء من جرائم ، وقياسا لما فعلوه من أعمال لا يقرها العقل ؛ فضلا عن الدين الذي تمرَّدوا عليه وارتدوا عنه ، فنقول: إن العقاب الذي نالهم كان عادلا وكان الجزاء من جنس العمل فهم قد ارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا وسرقوا ومثَّلوا وحاربوا الله ورسوله واستهانوا بكل المبادىء والقيم الإنسانية .[1]

إن حادثة العرانيين ترتب عليها تنفيذ حكم الحرابة ونزول آيات بينات في هذا الحكم ، فقد حصر المولى عز وجل جزاء المحاربين في أربعة أمور وكان ذلك الحصر بأقوى أدوات الحصر .

ثم إنه وصف هؤلاء المحاربين بأوصاف يشمئز منها كل عاقل ، ذلك أنه وصفهم بأنهم حرب لله تعالى ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأنهم يريدون إفساد الأرض بتخويف سكانها ، وتقتيلهم وسلبهم ونهب ممتلكاتهم ظلماً وجوراً لامستند لهم ولا باعث إلا الإفساد والطغيان ، فكانت رحمة الله تعالى الرحيم بهم وبغيرهم من خلقه مقتضية الحكم عليهم بواحد من أمور أربعة وهي: القتل ، والصلب ، وقطع الأيدي ، والأرجل من خلاف ، والإبعاد من مخالطة العامة ، وعزلهم عنها بالنفي والتغريب حتى لاتتكرر منهم تلك الجرائم الشنيعة وحتى يرتدع غيرهم عن ارتكاب مثل هذا الجرم الشنيع ، ولكي يطهرهم مايوقع بهم من عقاب ، من الذنوب والآثام إن هم تابوا ورجعوا إلى رشدهم وصوابهم .

ثم إن هؤلاء لهم ذلة ومهانة في الحياة الدنيا لأذيتهم المسلمين وقد علل تعالى لحوق تلك الرذيلة بهم مدة الحياة الدنيا بسبب ما اقترفوه من جريمة الحرابة ، وباقية معهم إلى يوم القيامة ، لكون الرب جل وعلا أعد لهؤلاء في الآخرة عذاباً عظيماً .

ثم استثنى جل وعلا من هؤلاء من أناب إليه ورجع في أسلوب حكيم مؤثر داع إلى رجوعهم وتوبتهم من هذه الجريمة المنكرة ، فلقد عفا عنهم تعالى إذا مارجعوا وجاءوا تائبين قبل القدرة عليهم ، لكون تلك التوبة مظنة لصدقهم في

(١) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص ٢٠٦ .

توبتهم ورجوعهم عن غيهم، لأنهم رجعوا قبل القدرة عليهم، وبتقييد العفو عنهم بتوبتهم قبل القدرة عليهم يفهم أنهم إن قدر عليهم قبل التوبة لاينالون من العفو مايـنالونه لو تابوا قبل القدرة عليهم وهذا نوع من العلاج في غاية الدقة والإنصاف، وفيه من الحفز على التقليل من هذه الجريمة وتركها مالايخفى على ذي عقل لبيب.

وكذلك الشأن في جميع أساليب القرآن الكريم العلاجية، كلها توافق الذوق السليم والعقل الراجح المتزن المتمتع بصفاء الفطرة السليمة.

ثم ختم تعالى الآيتين الكريمتين بأنه غفور رحيم لمن تاب منهم وأصلح، فلا يقنط أحد من رحمته الواسعة، ولايحول بين العبد ورحمة ربه، ومغفرته، عظيم ذنبه، وجسيم خطئه، مالم يقارف شركا وفي الجملة فقد عالجت الآيات القرآنية الحرابة في المجتمع الإسلامي علاجاً لامزيد عليه وذلك واضح مما يلي:

١ - وصف المحارب بأنه محارب لله تعالى ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢ - عظم الجزاء المرتب على الحرابة أيا كان هو.

٣ - مكانته الدنيئة في الدنيا والآخرة إن لم يتب.

٤ - يظهر علاج القرآن الكريم لهذه الجريمة الشنعاء بفتحه باب التوبة لمتعاطيها على مصراعيه حتى لايكون سده في وجهه حافزاً له على التمادي في جرمه والاستمرار في عتوه[1].

سرية الخبط أو بعث أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر:

تعتبر سرية الخبط، استمرارا لسياسة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العسكرية لإضعاف قريش، ومحاصرتها اقتصاديًا على المدى الطويل، ولتعويض المهاجرين، ولو جزءًا بسيطًا مما فقدوه من أموال ومتاع استولت عليها قريش عند مغادرتهم وطنهم مكة.

فقد حشد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجموعة من رجاله المخلصين في ثلثمائة صحابي من المهاجرين والأنصار[2] وأسند قيادتها إلى أمين الأمة أبي عبيدة بن

(١) د.عبدالله الشنقيطي، لاعلاج القرآن الكريم للجريمة، ص٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢ / ٣٤٠.

(٢) في رواية النسائي ثلاثمائة وبضعة عشر. انظر النسائي، سنن (٤/ ٢٠٩).
وقد نصت رواية الواقدي وكاتبه ابن سعد على ثلثمائة رجل من المهاجرين والأنصار،

الجراح، وحدد لهم الهدف المنشود وهو رصد عير المشركين ربما قافلة تجارية مساحلة عن طريقها المعتاد، وقد تمر بمنطقة نفوذ قبيلة جهينة على ساحل البحر الأحمر.

ونظرا للضائقة الاقتصادية التي كان يمر بها المسلمون في ذلك الوقت، فقد كان تموين هذا الجيش ضعيفا بحيث لم يجد لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير جراب من تمر زودهم إياه، إضافة إلى أزوادهم الخاصة التي كانت في مجملها قليلة أيضا. وأثناء المسير لموقع العمليات، فَنِي زاد السرية العام "فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش، فجُمع فكان مزودي تمر"[1] لأجل البركة في اجتماع الأزواد، وحتى يتساوى الكل في القوت فلا يتميز أحد عن أحد.

ورغم هذا الإجراء المنضبط من القائد الذكي إلا أن جرابا من تمر وهو مقدار ما تجمع من الزاد الخاص للجيش لم يكن يكفي جيشا مكونًا من ثلثمائة رجل.

فكان أبو عبيدة يقوتهم من هذا الجراب كل يوم "قبضة قبضة" ثم تمرة تمرة. عندما قارب من الانتهاء، وقد أدرك الجند صعوبة الموقف فتقبلوا هذا الإجراء بصدور رحبة دون تذمر أو ضجر، بل إنهم ساهموا في خطة قائدهم التقشفية فصاروا يحاولون الإبقاء على التمرة أكبر وقت ممكن.

يقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد أفراد هذه السرية: "كنَّا نمصها كما يمص الصبي ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى الليل"[2] وكم هو رائع هذا الموقف المدهش حقًا والذي أدهش قبلنا وهب بن كيسان رَحِمَهُ اللَّهُ الذي سأل جابرا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دهشًا: "ما تغني عنكم تمرة؟، فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت"[3].

ومع ذلك لم يؤثر ذلك على معنويات الجيش، ويستسلموا للأمر الواقع بل فكروا في حيلة يُبقون على أنفسهم حيث اضطروا إلى أكل ورق الشجر.

قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكنا نضرب بعصينا الخبط[4]، ثم نبله بالماء

وفيهم عمر بن الخطاب. انظر الواقدي، مغازي (٢/ ٧٧٤)، وابن سعد، طبقات (٢/ ١٣٢)، ابن حجر، فتح (٨/ ٧٧)، والنووي على مسلم (١٣/ ٨٩).

(١) المزود بكسر الميم وسكون الزاي ما يجعل فيه الزاد. ابن حجر، فتح (٨/ ٧٩)، وإرشاد الساري (٦/ ٤٢٧).

(٢) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٨٤).

(٣) ابن حجر. (٨/ ٧٧).

(٤) الخبط: ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها، واسم الورق الساقط خَبَط بالتحريك، فعل

فنأكله "[1].

"فسمى ذلك الجيش جيش الخبط "[2]، وقد أثر هذا الموقف في قيس بن سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أحد جنود هذه السرية الشجاعة وهو رجل من كرماء الصحابة المشهورين فنحر للجيش "ثلاث جزائر"[3]، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه "[4].

ولم يكن الله عز وجل ليتخلى عن جند له خرجوا في سبيله ابتغاء مرضاته، وطمعا فيما عنده من الأجر، فبينما هم كذلك من الجهد والجوع الشديدين إذ زفر البحر زفرة أخرج الله فيها حوتًا ضخمًا، فألقاه على الشاطىء، ويصف لنا جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مقدار ضخامة هذا الحوت العجيب فيقول: "وانطلقنا على ساحل البحر، فرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم[5]، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر[6]، قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا بل نحن رسل

بمعنى مفعول وهو من علف الإبل، والخبط ورق ينفض بالمخابط ويجفف ويطحن ويخلط بدقيق أو غيره ويخفف بالماء. والقاموس المحيط، مادة (خبط).

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٨٤).

(٢) ابن حجر، فتح (٨/ ٧٨).

(٣) جمع جزور، والجزور: البعير، أو خاص بالناقة. (القاموس، مادة جزر).

(٤) ابن حجر فتح (٨/ ٧٨) وذكر الواقدي في روايته أن قيس بن سعد رضي الله عنه استدان هذه الجزر من رجل جهني، وأن أبا عبيدة رضي الله عنه نهاه قائلا: تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك. الواقدي، مغازي (٢/ ٧٧٤ - ٧٧٥)، هذا وقد رجح ابن حجر هذا السبب عند ذكر الاختلاف في سبب نهي أبي عبيدة لقيس، فقال: قيل لخشية أن تفنى حولتهم، وفيه نظر؛ لأن القصة أنه اشترى من غير العسكر، وقيل: لأنه كان يستدين على ذمته، وليس له مال، فأريد الرفق به، وهذا أظهر والله أعلم، فتح (٨/ ٨١).

(٥) الكثيب: التل من الرمل. (القاموس: الكثب).

(٦) العنبر سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التراس، قال الأزهري: العنبر سمكة بالبحر الأعظم يبلغ طولها خمسين دراعا يقال لها بالة، وليست بعربية، والمقصود به حوت العنبر SPERMWHALE وهو مميز الشكل والهيئة، ومظهره ملتو، ويتميز عن غيره من الحيتان بالرأس الضخم والبوز المربع الذي يخزن فيه كمية كبيرة من الدهن، وهو من أكبر أنواع المسننات من الحيتان حيث يتراوح طول الذكر منه خمسة عشر إلى عشرين مترا، ويزن حوالي من خمسة وثلاثين إلى ستين طنًّ، والأنثى أصغر من الذكر، وتعتبر الحبارة هي غذاءه الرئيسي إذ يصيد منها كميات كبيرة وضخمة، وقد وجد في معدته من هذه الحبارات ما يبلغ طوله عشرة أمتار. والعنبر من الكائنات البحرية الغواصة فهو يستطيع الغوص إلى عمق ألف متر أو أكثر، كما يستطيع البقاء في الأعماق حوالي ساعة من

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهرا، ونحن ثلثمائة حتى سمِنَّا، قال: لقد رأيتنا نغترف من وقب[1] عينيه بالقلال[2] الدهن. وتقتطع منه الفدر[3] كالثور، أو قدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم في وقب عينيه، وأخذ ضلعا من أضلاعه فأقامها، ثم رجل أعظم بعير معنا فمر من تحتها[4] وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال: «**ما حبسكم ؟**»، فقلنا: كنا نتبع عيرات قريش، وذكرنا له من أمر الدابة". فقال: «**هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟**»، قال: فأرسلنا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه فأكله"[5].

ومن الدروس المستفادة من هذه السرية:

- جواز صدِّ أهل الحرب واغتيالهم والخروج لأخذ مالهم واغتنامه.

- وأن الجيوش لا بد لها من أمير يضبطها، وينقادون لأمره ونهيه، وأنه ينبغي أن يكون الأمير أفضلهم، قالوا: يستحب للرفقة من الناس وإن قلوا أن يؤمروا بعضهم عليهم، وينقادوا له، قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: يستحب للرفقة من المسافرين خلط أزوادهم ليكون أبرك، وأحسن في العشرة، وأن لا

الزمان. انظر الفيروز آبادي، القاموس، وابن منظور، لسان مادة: عنبر، وانظر ابن حجر، فتح (٨/ ٨٠)، والحلبي، سيرة (٣/ ٢٠٣)، ومنير البعلبكي: المورد قاموس انكليزي - عربي (ص: ٨٨٦).

(١) الوقب هو النقرة التي تكون فيها العين. ابن منظور، لسان، مادة (وقب).

(٢) جمع قلة وهي الجرة العظيمة، وذلك مما يقور الظن بأنه حوت العنبر حيث إنه يتميز عن غيره من الحيتان بالرأس الضخم الذي يتركز فيه كمية كبيرة من الدهن.
انظر: د. موسى العمودي، الثدييات البحرية، ص ١٤.

(٣) جمع فدرة وهي القطعة من اللحم. القاموس، واللسان (فدر).

(٤) وفي: "فأخذ أبو عبيدة ضلعا من أضلاعه فنصبه، ثم نظر إلى أطول رجل في الجيش، وأطول جمل فحمله عليه، فمر تحته". انظر ابن حجر فتح (٨/ ٧٨)، ومسلم بشرح النووي (١٣/ ٨٨) واللفظ له. قال ابن حجر: وهذا الرجل لم أقف على اسمه، وأظنه قيس بن سعد بن عبادة فإن له ذكرا في هذا الغزوة، وكان مشهورا بالطول. ابن حجر، فتح (٨/ ٨٠).

(٥) ابن حجر، فتح (٦/ ١٣٠، ٨/ ٧٧ - ٧٨)، والقسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٦/ ٤٢٧ - ٤٢٨)، مسلم بشرح النووي (١٣/ ٨٤- ٨٥ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠)، ابن هشام، سيرة (٤/ ٦٣٢ - ٦٣٣) الواقدي، مغازي (٢/ ٧٧٤ - ٧٧٥ - ٧٧٦ - ٧٧٧) وابن سعد، طبقات (٢/ ١٣٢)، والطبري، تاريخ (٣/ ٣٢ - ٣٣).

يختص بعضهم بأكل دون بعض والله أعلم[1].

- مشروعية المواساة بين الجيش عند وقوع المجاعة، وأن الاجتماع على الطعام يستدعي البركة فيه[2].

- ومن الفوائد أيضا: جواز أكل ورق الشجر عند المخمصة، وكذلك عشب الأرض، قاله ابن القيم[3].

وما أقدم عليه أصحاب السرية من أكل الخبط دليل على قوة شكيمتهم، وتمتعهم بفكر سليم هداهم إلى أكل ورق الشجر كي يبقوا على أنفسهم ولا يستسلموا للجوع فيُقضى عليهم، مع عظيم توكلهم على الله عز وجل الذي لم يخب ظنهم فأطعمهم رزقا من عنده من حيث لا يحتسبون. وصدق الله القائل في محكم كتابه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

وقد سمعنا في وقتنا الحاضر بأن الجيوش الحديثة لديها فرق خاصة تسمى (قوات الصاعقة) يتم تدريبها تدريبا عنيفا يتضمن تعويدهم على أكل ورق الشجر وغيره استعدادا لما قد يلاقونه من جوع في مهماتهم، وقد رأينا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، في هذه السرية يأكلون ورق الشجر، كل تلك الفترة بدون تدريب مسبق على ذلك، وليس ذلك بمستغرب من جنود سامية أهدافهم يملأ الإيمان جوانحهم[4].

- وفي هذه السرية أيضا بيان ما كان عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من الزهد في الدنيا، والتقلل منها، والصبر على الجوع وخشونة العيش، وإقدامهم على الغزو مع هذا الحال[5].

- وتدل القصة على جواز أكل ميتة البحر، وأنها لم تدخل في قوله عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ [المائدة: ٣]. وقد قال الله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ﴾ [المائدة: ٩٦]. ، وقد صح عن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عباس وجماعة من الصحابة "أن صيد البحر ما صيد منه،

(١) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٨٦).
(٢) ابن حجر، فتح (٨/ ٨١).
(٣) ابن القيم، زاد المعاد (٢/ ١٥٩).
(٤) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٢٢.
(٥) مسلم بشرح النووي (١٣/ ٨٦).

وطعامه ما مات فيه"، وفي السنن عن ابن عمر مرفوعا وموقوفا: «**أحلت لنا ميتتان، ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال**» حديث حسن، وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأن قول الصحابي: "أُحل لنا كذا، وحُرِّم علينا" ينصرف إلى إحلال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتحريمه، فإن قيل: فالصحابة في هذه الواقعة كانوا مضطرين، ولهذا لما هموا بأكلها قالوا: إنها ميتة، وقالوا: نحن رسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن مضطرون فأكلوا، وهذا دليل على أنهم لو كانوا مستغنين عنها لما أكلوا منها[1].

- وفيها دليل على جواز الاجتهاد في الوقائع في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإقراره على ذلك، لكن هذا كان في حال الحاجة إلى الإجتهاد وعدم تمكنهم من مراجعة النص. وقد اجتهد أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عدة من الوقائع وأقرهما على ذلك، لكن في قضايا جزئية معينة لا في أحكام عامة وشرائع كلية؛ فإن هذا لم يقع بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحد من الصحابة في حضوره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألبتة[2].

لقد شهد العام السادس من الهجرة تصعيداً عنيفاً في عمليات المواجهة مع العدو، ولايكاد يمر شهر دون سرية أو سريتين تضرب في الصحراء، وتفض جمعاً أو تحطم عدواً أو تغتال طاغوتاً، فقد كان شعار المرحلة: الآن نغزوهم ولايغزونا، فقد كان حزب الله ينطلق في الآفاق باسم الله، يحمل المبادئ الخالدة، والقيم العليا يقدمها للخلق كافة، ويزيح كل طاغوت يحول دون وصول هذه المبادئ، ونشهد حزب الله في أفراده جميعاً والذين تلقوا أعلى مستويات التربية الخلقية، والفكرية، والعسكرية، والسياسية، كيف ينفذون هذا المنهج وكيف يكون واقعهم ترجمة عملية وحية لمبادئهم، وكيف يتقدمون ليتصدروا مرحلة جديدة تبدأ معالمها وملامحها مع صلح الحديبية[3].

---

(١) ربما أنهم توقفوا بادىء الأمر لعدم معرفتهم بالحكم الذي لم يرد فيه نص قاطع من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا في وقت متأخر في الحديث الذي يرويه أبو هريرة الذي أسلم بعد فتح خيبر - في البحر، وفيه: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته" أخرجه مالك. انظر موطأ مالك (١/ ٢٢، ٢/ ٤٩٥)، والألباني صحيح سنن الترمذي (١/ ٢١)، وصحيح سنن أبي داود (١/ ١٩)، وصحيح سنن النسائي (١/ ١٤)، وصحيح سنن ابن ماجه (١/ ٦٧).

(٢) مسلم بشرح النووي، ١٣/ ٨٦، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ١٢٤.

(٣) التربية القيادية، ٤/ ١٨٩ إلى ١٩٢، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة، ٢ / ٣٧٥.

غزوة الحديبية [1]:

بعد غزوة الأحزاب شهد العام السادس من الهجرة نشاط عسكري كبير للدولة الإسلامية نتج عنه تحول في سير الأحداث العسكرية لصالح المسلمين، وبدأ سقف التطلعات يعلو، وأصبح المسلمون يشعرون بالرغبة الكبيرة في تتويج جهودهم والوصول لفتح مكة، والتمكن في أداء عبادتهم في المسجد الحرام، الذي كان قد صد عنه المشركون منذ الهجرة النبوية الشريفة.

وكان السبب في خروج المسلمين لهذه الغزوة رؤيا رآها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبيل خروجه، وملخصها: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى أنه دخل البيت هو وأصحابه وطافوا به، وحلق بعضهم وقصر البعض، وأخبر أصحابه بذلك فاستبشروا[2].

وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ . . .﴾ [الفتح: ٢٧].

وفي يوم الاثنين الأول من ذي القعدة سنة ٦ هـ [3]، خرج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة متوجها بأصحابه إلى مكة لأداء العمرة [4]. وقد كشف بذلك عن حقيقة النظرة الإسلامية إلى البيت العتيق، والمشاعر الإسلامية نحوه وتعظيمهم لشعائر الله في حجه وعمرته. وكان ذلك في الوقت نفسه إظهارا لخطأ دعاية قريش المعادية التي حاولت عبر فترة الصراع أن تبثها بين بطون القبائل والتي أرادت أن تظهر أنّ المسلمين لا يعترفون بمكانة البيت العتيق وحرمته. على أن هذا التوجه نحو أداء العمرة من قبل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين، وخططهم في الوصول إلى مكة ودخولها لأداء النسك قد أحرج قريشا إلى درجة كبيرة وخصوصا أن ذلك يأتي في أعقاب فشل غزوة الأحزاب وانهيار التحالفات

---

(١) موضع فيه بئر يقع على مشارف مكة الشمالية الغربية وعلى مسافة تزيد على عشرين كيلو من المسجد الحرام. وجعلها ابن هشام: «أمر الحديبية» على اعتبار أن الأصل في ذلك الخروج للعمرة وليس للغزو، وقد سميت بالغزوة بها لأن قريشا منعت المسلمين من دخول مكة وهم في الحديبية (السيرة ٣/ ٤٢٧).

(٢) مغازي الواقدي ٢/ ٥٧٢، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ٢/ ٥٤، والمقريزي، إمتاع الأسماع ١/ ٢٧٤، الزرقاني، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٢/ ١٧٩.

(٣) ابن حجر - فتح الباري ٨/ ٩٧.

(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري - حديث ٤١٧٩).

القرشية مع القبائل الأخرى ومع يهود . وهي تبرز بوضوح وجلاء قوة المسلمين واستعلائهم في نظر العرب ، في نفس الوقت الذي تخطأ فيه جميع الدعايات القرشية المعادية للمسلمين وأوقعت قريشا في الحرج الشديد ، فهي إما أن تسمح للمسلمين وعلى رأسهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعمرة ، فيتحقق العرب من ضعفها وكذب دعاياتها ، وإما أن تعارض ذلك ، فتصد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمين عن دخول مكة وأداء العمرة ، وبذلك ينكشف زيف ادعائها بالحرص على البيت العتيق وحرمته ، ويتحدث العرب عن صد قريش لمن قصدوا تعظيمه وتكريمه والحج إليه ، وكانت جميع هذه المعاني ماثلة أمام زعماء قريش حين واجهوا هذا الحدث الكبير .

ولم يكن خافياً على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عداوة قريش للمسلمين ولا تخفى على من له أدنى علم بأحداث الجزيرة في ذلك الوقت ، فآخر هجوم قامت به على المدينة - كان قبل سنة فقط من خروج المسلمين لهذه الغزوة - حشدت فيه كل قواها المادية والمعنوية مستهدفة القضاء على المسلمين ، وإبادة خضرائهم ، لكن الله ردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً ، فغيظهم على المسلمين يزداد يوماً بعد يوم ، ومن المستحيل أن يمكنوا المسلمين من الدخول إلى مكة عن رضى منهم وطواعية ، بل لن يتوانوا في الإيقاع بهم إن وجدوا سبيلاً إلى ذلك .

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه على علم بعداوة قريش وحنقها لذلك فقد أخذوا أهبتهم وحيطتهم قبل خروجهم من المدينة . وعزم على الخروج بأكبر عدد ممكن من المسلمين ، ولذلك فإنه استنفر المسلمين من أهل البادية ، غير أنهم أبطئوا عليه وتعلل بعضهم بأعذار شتى كشفها القرآن الكريم: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ [الفتح: ١١ - ١٢] .

وهكذا فقد خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه من المهاجرين والأنصار وبلغ عددهم ألفا وأربعمائة رجل [1] ، حملوا معهم سلاحهم توقعا لشر

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري - حديث ٣٥٧٦ ، ٤١٥١ ، ٤١٥٤) ، مسلم - الصحيح ، كتاب الإمارة ص ٧٣ ، ٧٥ ، يحيى بن معين - التاريخ ١/ ٣٢١ ، البيهقي - دلائل النبوة ٢/ ٢١٤ .

قريش [١] . وكانوا مستعدين للقتال [٢] .

وصلى الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون بذي الحليفة ، وأهلّوا معه محرمين بالعمرة ، وساقوا الهدي معهم سبعين بدنة ، ثم بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسر بن سفيان الكعبي الخزاعي من ذا الحليفة عيناً له إلى مكة ، فسار بسر إلى قريش يتحسس أخبارهم ونواياهم إزاء المسلمين وردود فعل قريش [٣] .

وأرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وصوله الروحاء [٤] سريّة جعل عليها أبا قتادة الأنصاري - ولم يكن محرما بالعمرة - في جمع من الصحابة إلى ساحل البحر الأحمر بعد أن علم بوجود تجمع للمشركين في غيقة [٥] ، وخشية أن يباغتوا المسلمين ، فلم يلقوا كيدا ويظهر أنهم أخذوا طريق الساحل لتأمينه ، إذ لم يلتحقوا بركب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلّا في : «السقيا» [٦] .

وحين وصل المسلمون عسفان [٧] جاءهم بسر بن سفيان الخزاعي بأخبار استعدادات قريش وتجميعها الجموع لصد المسلمين عن دخول مكة ، وإرسالها طلائع من الفرسان إلى «كراع الغميم» [٨] .

روي البخاري قال: "فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدي وأشعره وأحرم منها بعمرة ، وبعث عيناً له من خزاعة ، وسار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إذا كان بغدير

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري - حديث ٤١٧٩) .

(٢) وانفرد الواقدي بالقول بأنهم لم يكونوا يحملون السلاح ، المغازي ٢/ ٥٧٣ .

(٣) البخاري - الصحيح (فتح الباري - حديث ٤١٧٩) ، أحمد - المسند ٤/ ٣٢٣ ، ابن هشام - السيرة ٣/ ٣٠٨ .

(٤) الروحاء - بفتح الراء المهملة وسكون الواو ثم حاء مهملة ممدودة -: محطة في صدر وادي الصفراء على طريق مكة من المدينة على (٧٣كيلو) مشهورة (ببئر الروحاء) . نسب حرب: ٣٦١ .

(٥) غيقة: هو بفتح الغين المعجمة بعدها ياء ساكنة ثم قاف مفتوحة ثم هاء - قال السكوني: هو ماء لبني غفار بين مكة والمدينة ، وقال يعقوب: هو قليب لبني ثعلب يصب فيه ماء رضوى وهو يصب في البحر . فتح الباري ٤/ ٢٣ .

(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري - الأحاديث ١٨٢١ - ١٨٢٤) ، والسقيا موضع يبعد ١٨٠ كيلومتر من المدينة في الطريق إلى مكة .

(٧) موضع على طريق المدينة - مكة ، يبعد ٨٠ كيلومتر عن مكة .

(٨) واد بين عسفان ومكة قريب إلى عسفان ، يبعد عنها ١٦ كيلو عن مكة ، انظر: البلادي - معجم المعالم الجغرافية في السيرة ، ص/ ٢٦٤ .

الأشـطاط ، أتاه عينه قال: إن قريشاً جمعوا لك جموعاً وقد جمعوا لك الأحابيش[1] وهـم مقاتلـوك وصـادوك عـن البـيت ومانعوك ، فقال: أشيروا أيها الناس علي ، أتـرون أن أمـيل إلى عـيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فإن يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عيناً من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين[2] ، فقال أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه ، قال: «**امضوا على اسم الله**» [3] .

وقد صلّى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه في عسفان صلاة الخوف [4] .

ولـما بلـغ رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن قريـشاً قـد خـرجت تعترض طريقه ، وتنـصب كميناً له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد ، وهو لم يقرر المصادمة ، رأى أن يغـير طـريق الجـيش الإسـلامي تفادياً للصدام مع المشركين . فقال: «**من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟**» فقال رجل من أسلم: أنا يارسول الله ، فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب شق على المسلمين السير فيه حتى خرجوا إلى أرض سـهلة عـند مـنقطع الـوادي . وعند ذلك قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للناس: «**قولوا نستغفر الله ونتوب إليه**» ، فقالوا ذلك .

فقال: «**والله إنها الحطة [5] التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها**» [6] .

فأمـر رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الـناس أن يـسلكوا ذات الـيمين بـين ظهري الحمش[7] في طريق تخرجه إلى ثنية المرار[8] ، فهبط الحديبية من أسفل مكة ، فسلك

---

(١) الأحابـيش: هـم أحـياء مـن القـارة انـضموا إلى بـني لـيث في محاربـتهم قريـشاً ، والتحبش التجمع ، وقيل: حالفوا قريشاً تحت جبل يسمى حبشياً ، فسموا بذلك . النهاية ١/ ٣٣٠ .

(٢) محروبين: مسلوبين منهوبين . النهاية ١/ ٣٥٢ .

(٣) الـبخاري ، الصحيح (فتح الباري ، الأحاديث ٤١٧٨ - ٤١٧٩) ، أحمد ، المسند ٤/ ٣٢٣ ، النسائي ، السنن (حديث ١٥٥٠ - ١٥٥١) ، ابن كثير ، التفسير ١/ ٥٤٨ .

(٤) مـسلم ، الـصحيح ٤/ ٢١٤٤ (حـديث ٢٧٨٠) ، البيهقي ، السنن الكبرى ٣/ ٢٥٧ ، ابن كـثير ، التفسير ١/ ٥٤٨ ، وهذا على رأي من أخر غزوة ذات الرقاع إلى ما بعد فتح خيبر ، وهـو الـصحيح ، وخلافـا لـما ذكره ابن إسحاق وابن هشام والواقدي (السيرة النبوية ، ٣/ ٢٠٣ ، المغازي للواقدي ، ١/ ٣٩٦) .

(٥) يريد قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿قُولُوا حِطَّةٌ﴾ قال المفسرون: معناه: اللهم حط عنا ذنوبنا .

(٦) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٣٨) .

(٧) بين ظهري الحمش: تقع شمال ثنية المرار . معجم المعالم الجغرافية للبلادي ، ص ١٠٦ .

(٨) ثـنية المِـرَار: هي طريق في الجبل تشرف على الحديبية ، الفتح ٥/ ٣٣٥ ، وقال البلادي: "إذا وقفـت في الحديبـية ونظـرت شمالاً عدلاً ، رأيت جبلين بارزين بينهما فج واسع هذا الفج

الجيش ذلك الطريق بخفة ودون أن يشعر به أحد، فعجل خالد بن الوليد بالعودة إلى مكة حين علم بذلك فعاد مسرعاً هو ومن معه إلى مكة يحذر أهلها ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجئ[1] وقد أصاب الذعر المشركين وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية حيث تعرضت مكة للخطر وأصبحت مهددة من المسلمين تهديداً مباشراً[2].

يقول اللواء محمود شيت في هذا الدرس الرائع: لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفاً من قوات الجيش، فالذي يخاف من عدوه لايقترب من قاعدته الأصلية، وهي مركز قواته، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصلية حتى يُطيل خط مواصلات العدو، وبذلك يزيد من صعوباته ومشاكله ويجعل فرصة النصر أمامه أقل من حالة الاقتراب من قاعدته الأصلية[3].

ويؤخذ من إتخاذ الأدلة والتحول إلى الطرق الآمنة أن القيادة الواعية البصيرة، تسلك في سيرها بالجيش بعيدة عن المخاطر والمهالك، وتتجنب الدروب التي تجعل الجيش خاضعاً تحت تصرفات العدو وهجماته[4].

وعندما اقترب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: خلأت القصواء[5]، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ماخلأت القصواء، وماذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل**». ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لايسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**»[6]، ثم زجرها[7] فوثبت، ثم عدل عن دخول مكة وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرّضه[8] النّاس تبرّضا، فلم يلبّثه النّاس حتّى نزحوه، وشكي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العطش؛ فانتزع سهما

ثنية المرار: معجم المعالم، ١٠٦.

(١) البيهقي، دلائل النبوة ٢/ ٢١٩ - ٢٢٠، الواقدي، المغازي ٢/ ٥٨٢، ابن سعد - الطبقات ٢/ ٩٥.

(٢) السيرة النبوية لأبي فارس، ص٣٧٤.

(٣) شيت خطاب، الرسول القائد، ص١٨٦ - ١٨٧.

(٤) السيرة النبوية لأبي فارس، ص٣٧٤.

(٥) بركت وحرنت من غير علة ظاهرة، فلم تبرح مكانها.

(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٥/ ٣٢٩ - حديث ٢٧٣١).

(٧) زجرها: حثها وحملها على السرعة. النهاية ٢/ ٢٩٦.

(٨) يتبرضه: هو الأخذ قليلا قليلا.

من كنانته ، ثمّ أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالرّيّ حتّى صدروا عنه وكان ذلك من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [١] .

لقد خرج المسلمون من المدينة وهم أشد ما يكونون شوقاً إلى البيت الحرام ، ولقد كانوا عازمين على دخول مكة ، وأداء نسكهم مهما كلفهم ذلك من ثمن ، وفي الوقت نفسه كانوا حاسبين حساب قريش - لما كانوا يعلمونه من عدائها لهم وحنقها عليهم - ولذلك أخذوا أهبتهم لاجتياح كل ما من شانه أن يعوق طريق سيرهم ، لكن تغير الموقف تماما بعد أن بركت ناقته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة...** » [٢] ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لايسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**» [٣] .

فهذا النص يفسر لنا السبب في تغيير موقف الرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بروك الناقة ، ولا أعني ببروك ناقته البروك ذاته لكن أقصد ما وراء البروك وهو ما عبر عنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة..**» .

والذي حبس الفيل عن مكة هو الله سبحانه ، وإذن فالله هو الذي حبس ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديبية ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وحين أدرك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك الأمر أصدر التصريح الذي غير به موقفه الأول إلى ذلك الموقف السمح المتجاوب ، فكان له الأثر الفعال في نجاح الصلح حيث كان الجانب الإيجابي في مقابل سلبيات قريش [٤] .

وعمل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إبلاغ رسالة واضحة لزعماء قريش تضمنت أنه لم يأت لحربهم أو حرب غيرهم ، وإنما جاء بقصد الاعتمار وتعظيم البيت العتيق وتكريمه وزيارته والطواف به [٥] . وقد بيّن الرسول هذه الوجهة

---

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٥/ ٣٣١ - حديث ٢٧٣٢) ، وفي رواية صحيحة أخرى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا بماء فتمضمض ومج في البئر (البخاري - الصحيح ، فتح الباري - حديث ٢٥٧٧) ويمكن الجمع بين الحديثين .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ، كتاب الصلح: ٢٧٣١ - ٢٧٣٢ وتقدم سنده مع طرف من أوله برقم (٣٥) .

(٣) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٥/ ٣٢٩ - حديث ٢٧٣١) .

(٤) الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص١٥٩ .

(٥) البخاري ، الصحيح (فتح الباري - الأحاديث ٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

لعدد من الرجال المحايدين أحيانا ، وبواسطة رسل أرسلهم لهذا الغرض كذلك .

فبينما هم كذلك ، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعيّ في نفر من قومه من خزاعة ، وكانوا عيبة [1] نصح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل تهامة ، فقال: «**إنّي تركت كعب بن لؤيّ وعامر بن لؤيّ نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل** [2] **، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت**» . فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّا لم نجىء لقتال أحد، ولكنّا جئنا معتمرين، وإنّ قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدّة ويخلّوا بيني وبين النّاس، فإن أظهر؛ فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه النّاس فعلوا، وإلاّ فقد جمّوا** [3] **، وإن هم أبوا؛ فوالّذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتّى تنفرد سالفتي** [4] **، ولينفذنّ الله أمره**» . فقال بديل: سأبلّغهم ما تقول .

وقد نقل بديل الخزاعي ذلك لقريش فاتهموه وخاطبوه بما يكره . . . " فانطلق حتّى أتى قريشا ، قال: إنّا جئناكم من هذا الرّجل ، وسمعناه يقول قولا ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا . فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء . وقال ذوو الرّأي منهم: هات ما سمعته يقول . قال: سمعته يقول: كذا وكذا . فحدّثهم بما قال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ثم أرسل خراش بن أميّة الخزاعي – وهو يقصد بيان موقفه أمام الناس جميعا – فعقروا جمله وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش [5] . ووقع اختيار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بداية الأمر على عمر بن الخطاب ، فاعتذر لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الذهاب إليهم ، وأشار على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبعث عثمان مكانه [6] ، وعرض عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رأيه هذا معززاً بالحجة الواضحة ، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء وحيث أن هذا الأمر لم يكن متحققاً بالنسبة لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فقد أشار على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثمان

---

(١) عيبة نصح: العيبة هي ما توضع به الثياب لحفظها ، أي أنهم موضع النصح له والأمانة لسره .

(٢) العوذ المطافيل: العوذ هي الناقة ذات اللبن ، والمطافيل الأمهات اللاتي معها أطفالها .

(٣) جموا: أي استراحوا .

(٤) سالفتي: السالفة هي صفحة العنق . والمعنى من قوله حتى تنفرد سالفتي كناية عن القتل أو القتال وحيدا .

(٥) أحمد ، المسند ٤/ ٣٢٤ ، الفتح الرباني ٢١/ ١٠١ – ١٠٤ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٩٦ – ٩٧ .

(٦) المغازي للواقدي (٢/ ٦٠٠) .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، لأن له قبيلة تحميه من أذى المشركين حتى يبلغ رسالة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال لرسول الله: إني أخاف قريشاً على نفسي ، قد عرفت عداوتي لها ، وليس بها من بني عدي من يمنعني ، وإن أحببت يارسول الله دخلت عليهم فلم يقل رسول الله شيئاً ، قال عمر: ولكن أدلك يارسول الله على رجل أعز بمكة مني ، وأكثر عشيرة وأمنع ، عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «**اذهب إلى قريش فخيرهم أنا لم نأت لقتال أحد، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت**» [1] ، فعدل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه إلى عثمان بن عفان الذي دخل مكة في جوار أبان بن سعيد بن العاص ، وأبلغ قريشا رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [2] ، وحين سمح زعماء قريش لعثمان بالطواف بالبيت العتيق فإنه أبى أن يسبق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالطواف بالبيت ، فقد روي أن عثمان لما دخل في جوار أبان بن سعيد بن العاص ابن عمه وحمله على السرج وأردف خلفه ، فلما قدم به إلى مكة قال له: طف يا بن عم ، فقال عثمان: يا بن عم إن لنا صاحباً لا نبتاع أمراً حتى يكون هو الذي يعمله فنتبع أثره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [3] .

وقد أخرت قريش عودة عثمان إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فحسب المسلمون أنها قتلته [4] ، وبلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن عثمان قد قتل [5] فدعا أصحابه إلى البيعة تحت شجرة سمرة ، فبايعوه جميعا على الموت [6] سوى الجد بن قيس وكان من المنافقين [7] ، وكان أول من بايع من الصحابة أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي [8] وتابعه الصحابة يبايعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بيعته فأثنى

---

(١) أحمد ، المسند ٤/ ٣٢٤ ، ابن هشام ، السيرة ٣/ ٣٠٨ .

(٢) أحمد - المسند ٤/ ٣٢٤ .

(٣) العصامي ، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، ١/ ٤٧٨ .

(٤) أحمد ، المسند ٤/ ٣٢٤ .

(٥) أحمد ، المسند ٤/ ٣٢٤ .

(٦) البخاري - الصحيح (فتح الباري، حديث ٤١٦٩) ، مسلم - الصحيح - كتاب الإمارة (ص/ ٨١) ، وفي رواية صحيحة أخرى كانت البيعة على الصبر وعدم الفرار ، البخاري - الصحيح (حديث ٤١٦٩) ، مسلم - الصحيح (٣/ ١٤٨٣ ، حديث ١٨٥٦) ، ولا تعارض في ذلك لأن المبايعة على الموت تعني الصبر وعدم التولي ، انظر ابن حجر - فتح الباري (شرح الحديث ٤١٦٩ ، ٦/ ١١٨) .

(٧) مسلم - الصحيح ٣/ ١٤٨٣ (حديث ١٨٥٦) وانظر كتاب الإمارة (ص ٦٩) من حديث الصحابي جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - وهو من الذين بايعوا تحت الشجرة .

(٨) ابن حجر - الإصابة ، ٩٥ - ٩٦ من حديث الشعبي ، وقال: وأخرجه ابن منده من طريق

عليهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «أنتم خير أهل الأرض» [1] وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضا: «لا يدخل النّار إن شاء الله من أصحاب الشّجرة أحد الّذين بايعوا تحتها» [2].

ولما كان عثمان بن عفان قد حبس في مكة، فقد أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى يده اليمنى وقال: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده، وقال: «هذه لعثمان» [3] وبذلك فقد عدّ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المبايعين تحت الشجرة. وقبل أن تتطور الأمور وتتأزم، عاد عثمان إلى معسكر المسلمين بعد بيعة الرضوان هذه مباشرة. وقد عرفت البيعة بذلك لأن الله تعالى أخبر أنه رضي عن المبايعين فيها فقال جل جلاله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [الفتح: ١٨ - ١٩] [4].

فضل أصحاب البيعة:

لقد تحدث القرآن الكريم عن أهل بيعة الرضوان وورد فضلهم في نصوص كثيرة من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية منها:

- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

قال ابن القيم: وتأمل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فلما كانوا يبايعون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأيديهم ويضرب بيده على أيديهم وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو السفير بينه وبينهم كانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى، ولما كان سبحانه فوق سماواته على عرشه وفوق الخلائق كلهم كانت يده فوق أيديهم كما أنه سبحانه فوقهم [5].

- وقال تعالى مخبراً برضاه عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ

عاصم عن ذر بن حبيش، وصححهما.

(١) البخاري - الصحيح (فتح الباري، حديث ٤١٥٤).

(٢) مسلم - الصحيح - كتاب فضائل الصحابة ٤/ ١٩٤٢ حديث ٢٤٩٦).

(٣) البخاري - الصحيح (فتح الباري، حديث ٣٦٩٨).

(٤) انظر الطبري، التفسير ٢٦/ ٨٦.

(٥) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٧٢).

تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ - ١٩].

- أخبر الله تعالى عن أهل بيعة الرضوان أنه ألزمهم كلمة التقوى التي هي كلمة التوحيد وأنهم كانوا أحق بها وأهلها. قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

وقد ورد الثناء عليهم في السنة المطهرة في أحاديث كثيرة ومن ذلك مايلي:

- عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية: «**أنتم خير أهل الأرض**» وكنا ألفاً وأربعمائة ولو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة[1].

- وقال جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أخبرتني أم مبشر: أنها سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول عند حفصة: «**لايدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها**» قالت: بلى يارسول الله: فانتهرها فقالت حفصة: ﴿**وإن منكم إلا واردها**﴾ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (قد قال الله - عز وجل -: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لايدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها**»، قال العلماء: معناه لايدخلها أحد منهم قطعاً... وإنما قال إن شاء الله للتبرك لاللشك وأما قول حفصة بلى وانتهار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها فقالت: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا**﴾ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وقد قال: ﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا**﴾ فيه دليل للمناظرة والجواب على وجه الاسترشاد وهو مقصود حفصة لا أنها أرادت رد مقالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحيح أن المراد بالورود في الآية المرور على الصراط وهو جسر منصوب على جهنم فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون[2].

- وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يصعد الثنية ثنية المرار**[3]**، فإنه يحط**

(١) مسلم (٣/ ١٤٨٥).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/ ٨٥).
(٣) ثنية المرار: مهبط الحديبية والمرار.

عنه ماحط عن بني إسرائيل» ، قال: فكان أول من صعدها خيلنا خيل بني الخزرج ثم تتام الناس فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر» ، فأتيناه فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: والله لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم ، قال: وكان رجلاً ينشد ضالة له[1] .

وهذا الحديث تضمن فضيلة عظيمة لأصحاب الحديبية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وتلك الفضيلة مغفرة الله لهم وأكرم بها من فضيلة منحهم إياها الرب - جل وعلا - لإخلاصهم في طاعتهم واستجابتهم لله والرسول بالسمع والطاعة[2] .

إن جيل الحديبية له سمات كما في النصوص الصحيحة ، فهم خير أهل الأرض ، وغفر الله لهم ، ولايدخل منهم أحد النار ، وهذا الجيل مكون من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من أهل بدر ومن صلى القبلتين ، ومن التحق بهم من الذين اتبعوهم بإحسان[3] .

عقد الصلح وما ترتب عليه من أحداث:

ولما لم تقبل قريش ما نقله بديل بن ورقاء الخزاعي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه جاء زائرًا للبيت ولم يأت مقاتلاً ، واتهمتهم ، بل وأسمعتهم ما يكرهون ، فاقترح عليهم عروة بن مسعود الثقفي أن يقابل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسمع منه ، ثم يأتيهم بالخبر اليقين ، وقبل أن يباشر عروة ذلك ، ورغبة منه في منع تكرار ما حصل مع بديل قبله من تعنيف وسوء المقالة ، وضح لهم موقفه منهم وأقروا له بأنه غير متهم لديهم ، ثم أوضح لهم أن ما عرضه عليهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أمر رشد دعاهم إلى قبوله ، فوافقوا على رأيه ، فقد روي أنه قام فيهم فقال: " أي قوم ، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى . قال: أو لست بالولد؟ قالوا: بلى . قال: فهل تتّهموني؟ قالوا: لا . قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ ، فلمّا بلّحوا [4] عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى . قال: فإنّ هذا قد عرض عليكم خطّة رشد اقبلوها ودعوني آته . قالوا ائته .

فلما جاء الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل يكلّمه ، فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) مسلم (٤/ ٢١٤٤ - ٢١٤٥) .

(٢) انظر: عقيدة أهل السنّة والجماعة (١/ ٢١٢) .

(٣) الصلابي ، السيرة النبوية ، ٢/ ٣٧٨ .

(٤) بلّحوا: التبلّح هو الامتناع عن الإجابة: وبلحوا بمعني امتنعوا عن أداء ما عليهم .

نحوا من قوله لبديل. فقال عروة عند ذلك: أي محمّد، أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإنّي والله لا أرى وجوها، وإنّي لأرى أشوابا [1] من النّاس خليقا أن يفرّوا ويدعوك. فقال له أبو بكر: امصص بظر اللّات [2]، أنحن نفرّ عنه وندعه. فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والّذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلّم النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكلّما تكلّم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه السّيف وعليه المغفر، فكلّما أهوى عروة بيده إلى لحية النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضرب يده بنعل السّيف، وقال له: أخّر يدك عن لحية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر [3]، ألست أسعى في غدرتك؟. وكان المغيرة صحب قوما في الجاهليّة فقتلهم وأخذ أموالهم ثمّ جاء فأسلم.

فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**أمّا الإسلام فأقبل، وأمّا المال فلست منه في شيء**»[4].

لقد حاول عروة بن مسعود أن يوقع الفتنة والإرباك في صفوف المسلمين، وذلك حينما حاول إضعاف الثقة بين القائد وجنوده عندما قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إني لأرى أشوابًا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك، حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيات المسلمين ولخدمة أهداف قريش العسكرية والإعلامية، وحاول أيضا أن يفتعل أزمة عسكرية كبيرة بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجنوده من أجل التأثير على معنوياتهم وتحطيم عزائمهم، وهذا من أقوى أساليب الحرب النفسية التي استخدمت ضد المسلمين، أثناء تلك المفاوضات. ولكن تحطم كل ذلك أمام الإيمان العميق والتكوين الدقيق والصف الإسلامي المرصوص. ومن المفارقات الرائعة التي حصلت أثناء المفاوضات مع عروة بن مسعود وهي من عجائب الأحداث التي يستشف منها الدليل القاطع على قوة

(١) الأشواب: الأخلاط من أنواع شتى.

(٢) امصص بظر اللات: البظر قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة واللات: صنم لهم، وكانت عادة العرب الشتم بذلك لكن بلفظ الأم فأراد أبو بكر المبالغة في سب عروة بإقامة من كان يعبد مقام أمه.

(٣) غدر: من غادر وهي مبالغة في وصفه بالغدر.

(٤) البخاري، كتاب في الشروط (٣/ ٢٣٨) رقم ٢٧٣٢.

الإيمان التي كان يتمتع بها أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى قدرة هذا الدين في تحويل الإنسان من شيطان مريد إلى إنسان فاضل نبيل، حيث كان أحد الذين يتولون حراسة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثناء محادثاته مع عروة بن مسعود الثقفي في الحديبية هو المغيرة بن شعبة - ابن أخي عروة بن مسعود نفسه - وكان المغيرة هذا قبل أن يهديه الله للإسلام شابًّا فاتكًا سكيرًا، قاطعًا للطريق غير أن دخوله للإسلام حوله إلى إنسان آخر، وقد أصبح بفضل الله تعالى من الصفوة المؤمنة، وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بمهامّ حراسة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك الجو الملبد بغيوم الحرب، وكان من عادة الجاهلية في المفاوضات، أن يمسك المفاوض بلحية الذي يراه ندًّا له أثناء الحديث، وعلى هذه القاعدة كان عروة بن مسعود يمسك بلحية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثناء المناقشة، الأمر الذي أغضب المغيرة بن شعبة الذي كان قائمًا على رأس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسيف يحرسه وعلى وجهه المغفر فانتهر عمه وقرع يده بقائم السيف قائلاً له: اكففْ يدك عن مس لحية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن لا تصل إليك، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبتسم للذي يجري بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المؤمن، ولما كان المغيرة بن شعبة يقف بلباسه الحربي متوشحًا بسيفه ودرعه وعلى وجهه المغفر، فإن عمه عروة لم يكن باستطاعته معرفته، فقال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في أشد الغضب، ليت شعري من أنت يا محمد؟ من هذا الذي أرى من بين أصحابك؟ فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة**»، فقال له عمه: وأنت بذلك يا غُدر؟ لقد أورثتنا العداوة من ثقيف أبد الدهر، والله ما غسلت غدرتك إلا بالأمس. كان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء**»[1].

لقد فشل عروة في مفاوضاته ورجع محذراً قريش من أن تدخل في صراع مسلح مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ولكنه حرص علي أن ينقل لهم الصورة كاملة، حتى يكونوا علي بينة من الأمر... فقد روي أنه كان "... يرمق أصحاب النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعينيه. قال: فوالله ما تنخّم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نخامة إلّا وقعت في كفّ رجل منهم فدلّك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النّظر تعظيما له، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم،

(١) البخاري، كتاب في الشروط (٣/ ٢٣٨) رقم ٢٧٣٢.

والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنّجاشيّ، والله، إن رأيت مليكا قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمّدا. والله، إن يتنخّم نخامة إلّا وقعت في كفّ رجل منهم، فدلّك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضّأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النّظر تعظيما له، وإنّه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها[1].

ثم بعثت قريش بعد ذلك سيد الأحابيش، الحليس بن علقمة الكناني، فلما اقترب من معسكر المسلمين ورآه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنّ هذا من قوم يتألّهون فابعثوا الهدي في وجهه حتّى يراه**»[2]، كما أمر المسلمين أن يلبّوا، فلما رأى الحليس الهدي في قلائده، وسمع تلبية المسلمين عاد أدراجه قبل أن يصل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك إعظاما لما رأى، وقال لقريش: «رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت»[3]، فكان جوابهم عليه أن طلبوا منه السكوت واتهموه بالجهل[4]، وقد أنكر الحليس عليهم موقفهم وقال: «يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، أيصدّ عن بيت الله من جاءه معظما له؟! والذي نفس الحليس بيده لتخلنّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد»، فقالوا له: «كف عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به»[5].

فقام رجل منهم، يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آته.

فقالوا: ائته. فلمّا أشرف عليهم قال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هذا مكرز، وهو رجل فاجر**». فجعل يكلّم النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فبينما هو يكلّمه إذ جاء سهيل بن عمرو. فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد سهل لكم من أمركم**»[6]. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد أراد القوم الصلح حين**

---

(١) البخاري، الصحيح (فتح الباري - حديث ٢٧٣١).
(٢) البخاري، الصحيح (فتح الباري - حديث ٢٧٣١).
(٣) البخاري، الصحيح (فتح الباري - حديث ٢٧٣١).
(٤) ورد في الرواية الصحيحة قولهم له: «اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك»، مع أنهم كانوا قد أوفدوه ليفاوض نيابة عنهم.
(٥) البخاري، الصحيح (فتح الباري - الأحاديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٦) البخاري، الصحيح (فتح الباري - الأحاديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

بعثوا هذا الرجل» [1] ، وكانت قريش قد ألزمت سهيل بن عمرو أن لا يكون في صلحه (محمدا) إلّا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا» ، فلما انتهى إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكلم فأطال الكلام ، وتراجعا ، ثم جرى بينهما الصلح [2] .

بدأ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يملي شروط الصلح ، وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو كاتب الصحيفة [3] ، وأراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إعطاء عقد الصلح صبغة إسلامية فبدأه بالبسملة ، فاعترض سهيل قائلا: «ما (الرحمن) فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب (باسمك اللهم) كما كنت تكتب» ، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * . فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اكتب: باسمك اللّهمّ**» . ثمّ قال: «**هذا ما قاضى عليه محمّد رسول الله**» . فقال سهيل: والله لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب: «محمّد بن عبد الله» ، فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله إنّي لرسول الله وإن كذّبتموني، اكتب: محمّد بن عبد الله**» ، وذلك لقوله: «لا يسألونني خطّة يعظّمون فيها حرمات الله إلّا أعطيتهم إيّاها» . فقال له النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به**» . فقال سهيل: والله لا تتحدّث العرب أنّا أخذنا ضغطة (قهرا) ولكن ذلك في العام المقبل ، فنخرج عنها فتدخلها في أصحابك ، فأقمت فيها ثلاثا معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب» ، فوافق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك [4] ، فكتب . فقال سهيل: وعلى أنّه لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلّا رددته إلينا . قال المسلمون: سبحان الله ، كيف يردّ إلى المشركين وقد جاء مسلما؟ فبينما هم كذلك ، إذ دخل أبو جندل ابن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده [5] ، وقد خرج من أسفل مكّة حتّى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل: هذا يا محمّد أوّل من أقاضيك عليه أن تردّه إليّ . فقال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنّا لم**

---

(١) المرجع السابق نفسه ، وانظر ابن هشام ، السيرة ٣/ ٤٣٩ من حديث برواية ابن إسحاق وبإسناد حسن .

(٢) البخاري ، الصحيح (الأحاديث ٢٧٣١ - ٢) ، ابن هشام ، السيرة ٣/ ٤٣٩ .

(٣) صرح بهذه التسمية الشيخان ، البخاري ، الصحيح حديث ٢٦٩٨ - ٢٦٩٩ ، مسلم ، الصحيح ٣/ ١٤١٠ حديث ١٧٨٣) .

(٤) أخذنا ضغطة: أي قهرًا وعنوة .

(٥) يرسف في قيوده: أي يمشي مشيا بطيئا بسبب القيد .

نقض الكتاب بعد» . قال: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبدا . قال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فأجزه لي**» ، قال: ما أنا بمجيزه لك ، قال: «**بلى فافعل**» قال: ما أنا بفاعل . قال مكرز: بل قد أجزناه لك . وقد حاول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استثناء أبا جندل من الشرط غير أن سهيلا أصر على موقفه رغم موافقة مكرز بن حفص على طلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلم يجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إزاء إصرار سهيل بدّا من إعادته إليه [1] .

فقال أبو جندل: أي معشر المسلمين ، أردّ إلى المشركين وقد جئت مسلما؟ . ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذّب عذابا شديدا في الله .

وقد تم الاتفاق في الصلح بعد ذلك على:

- وضع الحرب عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض .
- وعلى أنه من أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أصحابه بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن أتى قريشا ممن مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يردّوه عليه .
- وأن بيننا عيبة مكفوفة (صدور نقية) .
- وأنه لا إسلال ولا إغلال (ولا سرقة ولا خيانة) .
- وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه [2] .
- وأنك ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة . وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك ، وأقمت فيهم ثلاثة معك سلاح الراكب ، لا تدخلها بغير السيوف في القرب» (أغمادها) . [3]

ولقد تذمر كثير من الصحابة من أغلب شروط هذا الصلح ، وخصوصا من التعديلات التي أحدثها سهيل ابن عمرو فيها وأصر عليها ، فقد امتنع علي بن أبي طالب عن محو عبارة «رسول الله» التي كانت قد وردت في ديباجة العقد في بادىء

---

(١) البخاري ، الصحيح (فتح الباري ، الحديثان ٢٧٣١ - ٢٧٣٢ ، مسلم ، الصحيح ٣/ ١٤١٠ حديث ١٧٨٣ ، عبد الرزاق الصنعاني ، المصنف ٥/ ٣٤٣ .

(٢) ورد في ثنايا الرواية عن الصلح بعد هذا الموضع من المتن قوله: «فتواثبت خزاعة فقالوا نحن مع عقد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعهده ، وتواثبت بكر فقالوا نحن مع عقد قريش وعهدهم» . ولا شك أن هذا قد حصل في وقت لاحق ، بناء على ما ورد في العقد وهو ليس جزءا منه ، انظر أحمد - المسند ٤/ ٣٢٥ .

(٣) أحمد ، المسند ٤/ ٣٢٥ ، ابن هشام ، السيرة ٣/ ٣٠٨ بإسناد حسن .

الأمر [1]، وغضب المسلمون لشرط رد المسلمين لإخوانهم الذين يفرون من مكة إلى المعسكر الإسلامي بغير إذن أوليائهم، وسألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا رسول الله تكتب هذا؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نعم.. إنّه من ذهب إليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا**» [2].

لقد كان الصلح في ظاهر شروطه لصالح قريش، حتى وجد المسلمون في أنفسهم من ذلك ما وجدوا، لكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قبل تلك الشروط كان يسير بتوجيه من الله العليم بما سيكون كيف يكون، فكان واثقاً كل الثقة أن كفته هي الراجحة، وإن ظهر للناس ما ظهر، أما قريش فكان محركها في سيرها هو العُنجُهِيَّة وحب السمعة، وقد صرحوا بذلك في وصيتهم لسهيل بن عمرو حين بعثوه للمفاوضة حيث قالوا له: ائت محمداً فصالحه ولا يكون في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً".

وعلى أساس من هذه الوصية بنى سهيل بن عمرو شروطه للصلح، فعندما قال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به" فقال سهيل: "والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَة..." [3].

وهكذا كان هدف قريش هو الحفاظ على سمعتها دون نظر للعاقبة ولذلك صارت شروطها وبالاً عليها حتى تخلت عن أهم تلك الشروط، فطلبت من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يؤوي من جاءه من مكة مسلماً ولا يرده إليها، وهذا ما سيتضح فيما بعد.

---

(١) البخاري – الصحيح (فتح الباري حديث ٢٦٩٩، ٤٢٥١، ٢٦٩٨، وقد حصل التباس في تحديد الشخص الذي تولّى الكتابة عند امتناع علي – رضي الله عنه – عن ذلك، أورد الامام مسلم في صحيحه أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعلي رضي الله عنه: «أرني مكانها» فأراه مكانها فمحاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكتب مكانها «ابن عبد الله»، ولا يستدل من ذلك على معرفته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القراءة والكتابة فإن معرفة رسم هاتين الكلمتين ومحوه لهما أو معرفته رسم اسمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يتكرر كتابته أمامه كثيرا من قبل كتابه، لا يخرجه عن كونه أميّا كما وصفه القرآن الكريم، وذهب الجمهور إلى أن المقصود من قوله «كتب» بمعنى أمر بالكتابة انظر ابن حجر – فتح الباري ٧/ ٥٠٤ (حديث ٤٢٥١).

(٢) مسلم، الصحيح – كتاب الجهاد ص ٩٣، (٣/ ١٤١١ – حديث ١٠٨٤).

(٣) البخاري – الصحيح (فتح الباري، الحديثان ٢٧٣١ – ٢٧٣٢، مسلم – الصحيح ٣/ ١٤١٠ حديث ١٧٨٣، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف ٥/ ٣٤٣.

ولقد ظهر الغضب الشديد على عمر بن الخطاب بسبب ما تضمنته شروط الصلح التي تصور أنها مهينة وأنها لا تعكس موقفا صلبا في الدفاع عن الحق، ولنستمع من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ردة فعله حينذاك، فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبيّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: ألست نبيّ الله حقّا؟. قال: «بلى» قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟. قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدّنيّة [1] في ديننا إذا؟. قال: «**إنّي رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**». قلت: أو ليس كنت تحدّثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟. قال: «**بلى، فأخبرتك أنّا نأتيه العام؟**» قال: قلت: لا. قال: «**فإنّك آتيه ومطوّف به**» [2].

ثم أعاد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الكلام مع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمثل ما كلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبيّ الله حقّا؟. قال: بلى. قلت: ألسنا لى الحقّ وعدوّنا على الباطل. قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدّنيّة في ديننا إذا؟. قال: أيها الرّجل، إنّه لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس يعصي ربّه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه [3] فوالله إنّه على الحقّ. قلت: أليس كان يحدّثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به؟. قال: بلى، أفأخبرك أنّك تأتيه العام؟. قلت: لا. قال: فإنّك آتيه ومطوّف به [4]. قال الزّهريّ: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا [5].

والحقيقة أن الصحابة لم يكونوا يشكّون في أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبيت العتيق كما سبق وأعلمهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما جرى صلح الحديبية على الشروط التي تضمنها، فإنهم تألموا وساورت بعضهم الشكوك «حتى كادوا

---

(١) نعطي الدنية في ديننا: أي لماذا نرضى بالنقص؟.

(٢) البخاري، الصحيح (فتح الباري، حديث ٢٧٣١ - ٢٧٣٢، ٣١٨٢)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٤١٢، حديث ١٧٨٥، أحمد - المسند ٤/ ٣٢٥ باسناد حسن.

(٣) غرزه: الغرز للإبل بمنزلة الركاب للفرس. والمراد بقوله «فاستمسك بغرزه» أي تمسك بأمره وترك مخالفته كالذي يمسك بركاب الفارس فلا يفارقه.

(٤) البخاري، الصحيح الأحاديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢، ٣١٨٢، وفي مسند أحمد ٤/ ٣٢٥ بإسناد حسن.

(٥) كما نقل ابن هشام (السيرة ٣/ ٣٠٨) قول عمر - رضي الله عنه -: «ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا، ويرى ابن حجر أن «جميع ما صدر منه كان معذورا فيه بل هو مأجور لأنه مجتهد» فتح الباري ٥/ ٣٤٦ - ٧.

أن يهلكوا» وخصوصا حين أعيد أخوهم أبو جندل وهو يستنجد بهم قائلا: يا معشر المسلمين: أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني عن ديني» والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يا أبا جندل اصبر واحتسب فإنّ الله - عزّ وجلّ - جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا**».

وكان عمر يمشي بجانب أبي جندل يغريه بأبيه ويقرب إليه سيفه ولكن أبا جندل لم يفعل، فأعيد إلى المشركين [1].

ولم تكف قريش عن التحرش بالمسلمين خلال مرحلة المفاوضات وكتابة وثيقة الصلح بل حتى بعد إنجاز ذلك؛ وربما كان ذلك من أساليب الضغط على المسلمين خلال مرحلة المفاوضات، وقد تكون التحرشات المتأخرة بسبب طيش شبابها وتهورهم، غير أن الملاحظ هو أن المسلمين قد احتملوا تلك التحرشات بصبر وجلد، وانضباط دقيق، مع يقظة تامة واستعداد، وعند ما حاولت مجموعة كبيرة من رجال قريش قاربت ثمانين رجلًا الاستيلاء على معسكر المسلمين بشكل مباغت، سارع المسلمون بتطويقهم وأسرهم، ثم عفا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهم فأطلق سراحهم [2]، ثم أسر المسلمون بعد ذلك ثلاثين شابًا من قريش اعتدوا على معسكرهم، وأطلق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سراحهم [3].

كما عفا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سبعين آخرين أسروا بعد إبرام الصلح، وعن أربعة آخرين كانوا يقعون بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد عقد الصلح واختلاط المسلمين بالمشركين [4]، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**﴾ [الفتح: ٢٤].

ويثار سؤال عن السبب الذي ألجأ قريشا لقبول الصلح والرضا به، ويرجع ذلك إلى بيعة الصحابة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع ملابسات أخرى، وتوضيح ذلك:

فلما هب الصحابة رضوان الله عليهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبايعوه على القتال حتى يفتح الله عليهم أو يموتوا كان قد حضر ذلك المشهد بعض رسل قريش، فأذهلهم الأمر ثم نقلوا تلك الصورة إلى قومهم، فأحدثت في أنفسهم هزة عنيفة جعلت منهم آذانا صاغية لقبول الصلح، فقد جاء عن عروة بن الزبير

(١) أحمد، المسند ٤/ ٣٢٥.
(٢) مسلم، الصحيح، كتاب الجهاد ص/ ٣٣.
(٣) أحمد، المسند ٤/ ٨٦ بسند صحيح.
(٤) مسلم، الصحيح - كتاب الجهاد (ص/ ١٣٢) حديث ١٨٠٧.

ما نصه: "ودعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى البيعة ونادى منادي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمر بالبيعة فاخرجوا على اسم الله، فبايعوا فثاب المسلمون إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو تحت الشجرة، فبايعوه على ألا يفروا أبداً، فرعبهم الله فأرسلوا من كانوا ارتهنوا من المسلمين، ودعوا إلى الموادعة والصلح"[1].

فهذا النص يبرز لنا مدى تأثير البيعة في نفوس المشركين.

وقد عزز أثر تلك البيعة ملابسات أخرى من قبل رسل المشركين أنفسهم:

فعروة بن مسعود حين رجع إلى قريش عظم لهم شأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكره لهم من أفعال الصحابة ما يبرهن على أنهم لن يسلموا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لشيء أبداً وأنهم سيبذلون نفوسهم دونه، ثم نصح قريشاً بقبول الهدنة، وأن يخلوا بين المسلمين وما جاءوا له.

فقد جاء في حديث المسور ومروان من رواية معمر ما نصه:

"فرجع عروة إلى أصحابه فقال أي قوم والله لقد وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابة ما يعظم أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمداً، والله إن يتنخم نخامة إلى وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عند، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وأنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها"[2].

وفي رواية: "ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء فروا رأيكم..."[3].

وكان لهذا وقعة في نفوسهم فقال أهل الرأي منهم: ليس خير من أن نصالح محمدا[4].

فهذه الموقف من رسل قريش معها - إلى جانب ما أحدثته البيعة في نفوسها من ذعر - كان السبب في انصياعها وقبولها الصلح[5].

---

(١) دلائل النبوة، ٢/ ٢٢٨، مرويات غزوة الحديبية، ص١٦٠.
(٢) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الصلح ٢٧٣١ - ٢٧٣٢.
(٣) مسند أحمد ٤/ ٣٢٤.
(٤) مسند أحمد ٤/ ٣٢٤.
(٥) مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ١٦٢.

فلمّا تم الصلح وأبرم العقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «**قوموا فانحروا ثمّ احلقوا**» . قال: فوالله ما قام منهم رجل ، حتّى قال ذلك ثلاث مرّات" وذلك ما يعكس الحالة النفسية الانفعالية التي قاسى منها المسلمون حينذاك بسبب استفزازات قريش المتكررة إضافة إلى تصورهم الخاطيء في أن شروط الصلح قد تضمنت إجحافا بهم ، وكأنهم كانوا يأملون الرجوع عن الصلح . فلمّا لم يقم منهم أحد دخل على أمّ سلمة فذكر لها ما لقي من النّاس . فقالت أمّ سلمة: يا نبيّ الله ؛ أتحبّ ذلك؟ . اخرج ، ثمّ لا تكلّم أحدا منهم كلمة حتّى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج فلم يكلّم أحدا منهم حتّى فعل ذلك: نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه . فلمّا رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتّى كاد بعضهم يقتل بعضا غمّا ، فدعا لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [1] وبذلك تحلل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه من المسلمين من عمرتهم ، وشرع التحلل للمحصر وأنه لا يلزمه القضاء [2] .

وبعد أن أقام المسلمون في الحديبية عشرين يوما [3] عاد بهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة وكانت غيبتهم هذه عنها قد امتدت شهرا ونصف الشهر [4] .

لقد كان رأي أم سلمة سديدًا ومباركًا ، حيث فهمت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن الصحابة أنه وقع في أنفسهم أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرهم بالتحلل أخذًا بالرخصة في حقهم ، وأنه يستمر على الإحرام أخذًا بالعزيمة ، في حق نفسه ، فأشارت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتحلل لينتفي عنهم هذا الاحتمال ، وعرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صواب ما أشارت به ففعله ، فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به ، فلم يبق بعد ذلك غاية تنتظر ، فكان ذلك رأيًا سديدًا ومشورة مباركة ، وفي ذلك دليل على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرة صائبة ورأي سديد [5] . كما أنه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة صائبة ، وهذا عين التكريم للمرأة التي يزعم أعداء

(١) أحمد – المسند ٢/ ٣٤ باسناد صحيح .
(٢) البخاري – الصحيح (حديث ٢٧٠١) ، مسلم – الصحيح ، كتاب الجهاد والسير ص/ ٩٧ ، أبو داود – السنن – كتاب المناسك (م ١٧٤٩) ، الحاكم – المستدرك ١/ ٤٦٧ .
(٣) وقيل سبعة عشر يوما ، انظر الواقدي ، مغازي ٢/ ٦١٦ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٩٨ .
(٤) ابن سيد الناس – عيون الأثر ٢/ ١٢٣ .
(٥) ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية ، ص١٦١ .

الإسلام أنه غمطها حقها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف واحترام لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبي مرسل ويعمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمشورتها لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبته[1].

نزول سورة الفتح:

ولما انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحديبية قاصداً المدينة وحتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١].

وقد عبَّر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عظيم فرحته بنزولها: وقال: أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس[2]، فقال أصحاب رسول الله: هنيئاً مريئاً فمالنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥][3].

وقد أسرع الناس إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو واقف على راحلته بكراع الغميم فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ فقال رجل: يارسول الله: أفتح هو؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح»[4]، فانقلبت كآبة المسلمين وحزنهم إلى فرح غامر، وأدركوا أنهم لايمكن أن يحيطوا بالأسباب والنتائج، وأن التسليم لأمر الله ورسوله فيه كل الخير لهم ولدعوة الإسلام[5].

لقد نزل القرآن الكريم وبين للمسلمين بأن هذا الصلح هو فتح مبين ويؤكد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان على صواب في قبول الصلح، بل لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين يبشره الله على الملأ من الدنيا بأن الله تعالى فتح بالصلح ليغفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر كرامة منه سبحانه لرسوله ليزداد المسلمون ثقة واطمئناناً بأنهم على الصواب وأن مافعلوه هو الحق ومآله السعادة،

---

(١) المعاهدات في الشريعة الإسلامية، ص٢٧٣.
(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٥/ ٨٠) رقم ٤١٧٧.
(٣) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، (٥/ ٧٨) رقم ٤١٧٢.
(٤) سنن أبي داود، معالم السنن، كتاب الجهاد رقم ٢٧٣٦.
(٥) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٤٩).

ثم بين سبحانه أن توفيق الله كان مع المؤمنين فهو الذي وفقهم للصبر مع رسوله وموافقتهم أخيراً على ماجنح له من أمر الصلح، وأن ذلك كان بسبب إنزال السكينة على قلوبهم حتى على قلوب من أنكر بعض شروط الصلح، واستسلم للأمر على مضض فلم يحصل رفض لهذا الصلح، بل كلهم نزلوا على أمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفضل السكينة التي أنزلها عليهم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ولله جُنُودُ السماوات وَالأَرْضِ وَكَانَ الله عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

فالقرآن الكريم يبين أن الله هو الذي أنزل السكينة عليهم ليتذكروا فضله، ويداوموا على شكره، وهذا الإعلام بإنزال السكينة مما يتميز به حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة إذ السكينة أمر معنوي لايعلم نزوله إلا الله، وأشار القرآن الكريم إلى بيعة الرضوان وهي مبايعة الصحابة للنبي على الموت فأثنى الله - سبحانه وتعالى - على هذه البيعة، وكتب لها الخلود في القرآن وقرر أنها مبايعة لله عز وجل فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وبهذا نرى مايتميز به القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات فهو يبين الحقائق ويصحح العقائد، ويربي النفوس، ويفضح المنافقين، وبشر المسلمين بغنائم قريبة تحققت في خيبر، وبين أصحاب الأعذار فليس كل من تخلف عن الجهاد يعاتب، وإنما هناك استثناء وهذا من كمال رحمته الإلهية، ثم لما تم صلح الحديبية وعاد المسلمون إلى المدينة ولم يتحقق ماقصدوه من دخول مكة أشار سبحانه وتعالى إلى الرؤيا التي سبقت أن رآها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبشر بها أصحابه وبين أنها رؤيا صدق، وأنها ستتحقق. قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ الله ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

ثم ختمت السورة الجليلة بصفات مدح للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأصحابه الكرام[1].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ

(١) حديث القرآن الكريم، ٢/٥٤٨ - ٥٥٥.

وَكَفَى بالله شَهِيدًا * مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ الله وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ الله الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٨ - ٢٩].

فهذه الآيات الكريمة وصفت أصحاب محمد في أحلى وأجمل صورة إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة حالاتها الظاهرة والمظمرة، فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم. وذوو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وهم فقط إخوة الدين، فهي الشدة لله، والرحمة لله.

اللقطة الثانية: ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ والتعبير يوحي كأنما هذه هي هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حين يراهم، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي: الحالة الأصلية في حقيقة نفوسهم، فعبّر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعاً سجداً.

واللقطة الثالثة: مثلها، ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم، وأعماق سرائرهم: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ الله وَرِضْوَانًا﴾ فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة، كل مايشغل بالهم، كل ماتتطلع إليه أشواقهم هو فضل الله ورضوانه، ولاشيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به.

واللقطة الرابعة: تثبت أثر العبادة الظاهرة، والتطلع المضمر في ملامحهم ونضجها على سماتهم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ سيماهم في وجوههم من الإشراق والوضاءة والصفاء والشفافية ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عن سماع قوله: ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ فالمقصود بأثر السجود هو: أثر العبادة، واختار لفظ السجود، لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة ويحل مكانها التواضع النبيل والشفافية الصافية والوضاءة الهادئة والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً.

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر، ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشرَّ الأرض بها قبل أن يجيؤوا إليها: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ﴾ وصفهم في بشارته بمحمد ومن معه إنهم: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ فهو زرع تام قوي يخرج فرخه من قوته وخصوبته، ولكن هذا الفرخ لايضعف العود بل يشده: ﴿فَآزَرَهُ﴾ وأن العود آزر فرخه فشده: ﴿فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ الزرع، وضخمت ساقه وامتلأت: ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ لا معوجاً ولامنحنياً، ولكن مستقيماً قوياً سوياً.

هذه صورته في ذاته، فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة والزرع والعارفين منه النامي، المثمر منه والبائر، فهو وقع البهجة والإعجاب: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ وهم رسول الله وأصحابه، وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس: فهو وقع الغيظ والكمد: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، وتعمد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزراعة زرعة الله أو زرعة رسوله، وأنهم ستار لقدره، وأداة لإغاظة أعداء الله.

وهذا المثل ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يجيؤون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة - صحابة رسول الله - فتثبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يستمع إليها من بارئ الوجود، وتبقى نموذجاً للأجيال تحاول أن تحققها ليتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعدما تقدم من صفتهم التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة: ﴿مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وذلك التكريم وحده حسبهم، وذلك الرضى وحده أجر عظيم، ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولاقيود، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ[1].

امتناع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن رد المهاجرات:

صمم مجموعة من النساء المستضعفات في مكة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدمة هؤلاء النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فقد

(١) التربية القيادية، ٤/ ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢.

هاجرت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد صلح الحديبية، فأراد كفار مكة أن يردوهن فرفض طلبهم هذا؛ بدليل أن الكلمة التي كتبت في المعاهدة بصدد هذا البند هي: (وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته علينا)، فلم تدخل النساء في العقد رأساً. فأنزل الله تعالى في حقهن: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠ - ١١].

فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمتحنهن بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا . . .﴾ إلخ [الممتحنة: ١٢]، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها: «**قد بايعتك**»، ثم لم يكن يردهن.

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم، فطلّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشّرك، فتزوّج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أميّة [1].

حل أزمة المستضعفين:

ثمّ لما رجع النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، استطاع أبو بصير عتبة بن أسيد أن يفر بدينه من سجون الشرك في مكة المكرمة، وأن يلتحق برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة، فأرسلت قريش في طلبه رجلين فقالوا: العهد الّذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرّجلين.

لقد شق ذلك على المسلمين وهم ينظرون بحزن إلى أخيهم في العقيدة، وهو يعود إلى سجنه بمكة بعد أن استطاع أن يفلت من ظلم قريش، ولكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يهتم بالوفاء بالعهود والمواثيق ولم يكن عنده مجرد نظرية مكتوبة على الورق ولكنه كان سلوكاً عملياً في حياته وفي علاقته الدولية، فقد أوصى الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود، وحذر من نقض الأيمان بعد توكيدها في كثير من الآيات القرآنية قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

---

(١) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٥٨).

وقال جلّ وعلا: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدة أصولية من قواعد الدين الإسلامي التي يجب على كل مسلم أن يلتزم بها[١].

لقد التزم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعهده مع قريش وسلم أبا بصير إليهما وانطلق معهما، فخرجا به حتّى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرّجلين: والله إنّي لأرى سيفك هذا يا فلان جيّدا، فاستلّه الآخر. فقال: أجل والله إنّه لجيّد، لقد جرّبت به ثمّ جرّبت به ثمّ جرّبت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتّى برد[٢]، وفرّ الآخر حتّى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رآه: «**لقد رأى هذا ذعرا**»، فلمّا انتهى إلى النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قتل والله صاحبي، وإنّي لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا نبيّ الله، قد والله أوفى الله ذمّتك قد رددتني إليهم، ثمّ أنجاني الله منهم. قال النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ويل أمّه**[٣]، **مسعر**[٤] **حرب لو كان له أحد**»، فلمّا سمع ذلك عرف أنّه سيردّه إليهم، فخرج حتّى أتى سيف البحر[٥].

وأخذ المستضعفون يفرون من مكة إلى أبي بصير في سيف البحر، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرو وغيره حتى اجتمع عند أبي بصير عصبة قوية، فما يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا طريقها وقتلوا من فيها، وأخذوا الأموال التي كانوا يتّجرون بها، فأرسل المشركون إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يناشدونه بالله والرحم لما أرسل إلى أبي بصير ومن معه، ومن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ حتّى بلغ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٤] وكانت حميّتهم أنّهم لم يقرّوا أنّه نبيّ الله، ولم يقرّوا ببسم

(١) سليم حجازي، منهج الأعلام الإسلامي في صلح الحديبية، ص٣٢٩.
(٢) حتى برد: أي خمدت أنفاسه وحواسه.
(٣) ويل أمه: كلمة ذم تقولها العرب في المدح ولا يقصدون معنى ما فيها من الذم.
(٤) مسعر حرب: أي مقدام للحرب مسعّر لنارها.
(٥) سيف البحر (بكسر السين): أي ساحل البحر.

الله الرّحمن الرّحيم، وحالوا بينهم وبين البيت [1].

وبذلك تخلت قريش عن أقسى شروطهم التي صبوا فيها كؤوس كبريائهم، فذلت قريش من حيث طلبت العز [2].

العبر والعظات من غزوة الحديبية:

لقد حفلت غزوة الحديبية بكثير من الأحكام والفوائد الفقهية وبالدروس والعبر التي تنير للمسلم الطريق وتجنبه كثيراً من المزالق إذا وفقه الله للتنبه لها.

- المعارضة الموضوعية:

إن الإسلام يرحب دائما بالمعارضة الموضوعية التي يكون هدفها الإصلاح والتقويم، وليس تصيد الأخطاء والانتقاص من حقوق الآخرين من أجل منصب أو جاه أو سلطان، وفي هذه الغزوة كان هناك مثالين هامين للمعارضة الموضوعية، التي يكون هدفها البناء والمصلحة العليا لدولة الإسلام، فلقد ظهرت معارضه عمر بن الخطاب الشديدة لهذه الاتفاقية بسبب ما تضمنته شروط الصلح التي تصور أنها لا تعكس موقفا صلبا في الدفاع عن الحق، ولنستمع من عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ردة فعله حينذاك، فقال عمر بن الخطّاب: فأتيت نبيّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلت: ألست نبيّ الله حقّا؟. قال: «بلى» قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟. قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدّنيّة [3] في ديننا إذا؟. قال: «**إنّي رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري**». قلت: أو ليس كنت تحدّثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟. قال: «بلى، **فأخبرتك أنّا نأتيه العام؟**» قال: قلت: لا. قال: «**فإنّك آتيه ومطوّف به**» [4].

ثم أعاد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الكلام مع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمثل ما كلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبيّ الله حقّا؟. قال: بلى. قلت: ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل. قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدّنيّة في ديننا إذا؟. قال: أيها الرّجل، إنّه لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) البخاري، الفتح (٢٧٣١، ٢٧٣٢) واللفظ له، ومسلم مقطعا (١٧٨٣، ١٧٨٤، ١٧٨٥).

(٢) محمد رسول الله، صادق عرجون، ٤/ ٢٨١.

(٣) نعطي الدنية في ديننا: أي لماذا نرضى بالنقص؟.

(٤) البخاري، الصحيح (فتح الباري، حديث ٢٧٣١ - ٢٧٣٢، ٣١٨٢)، مسلم، الصحيح ٣/ ١٤١٢، حديث ١٧٨٥، أحمد، المسند ٤/ ٣٢٥ باسناد حسن.

وليس يعصي ربّه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه [1] فوالله إنّه على الحقّ. قلت: أليس كان يحدّثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به؟. قال: بلى، أفأخبرك أنّك تأتيه العام؟. قلت: لا. قال: فإنّك آتيه ومطوّف به[2]. قال الزّهريّ: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا[3].

ولما وقعت حادثة أبي جندل تألمت نفوس الصحابة لما يحدث لأخ لهم في العقيدة حتى أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يمشي بجانب أبي جندل يغريه بأبيه ويقرب إليه سيفه ولكن أبا جندل لم يفعل، فأعيد إلى المشركين[4].

عاد الصحابة إلى تجديد المعارضة للصلح، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمراجعته، وإعلان معارضتهم مجدداً للصلح إلا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما أعطاه الله من صبر وحكمة وحلم وقوة حجة استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصلح، وأنه في صالح المسلمين وأنه نصر لهم، وأن الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً ومخرجاً، وقد تحقق ماأخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [5].

وبهذا يتبين أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة حيث قرر ذلك بقوله وفعله. وهو - والله أعلم - إنما أراد بهذا الفعل ارشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة التي تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السليمة التي تخدم المصلحة العامة[6].

---

(١) غرزه: الغرز للإبل بمنزلة الركاب للفرس. والمراد بقوله «فاستمسك بغرزه» أي: تمسك بأمره وترك مخالفته كالذي يمسك بركاب الفارس فلا يفارقه.

(٢) البخاري، الصحيح الأحاديث ٢٧٣١، ٢٧٣٢، ٣١٨٢، وفي مسند أحمد ٤/ ٣٢٥ بإسناد حسن.

(٣) كما نقل ابن هشام (السيرة ٣/ ٣٠٨) قول عمر - رضي الله عنه -: «ما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا، ويرى ابن حجر أن «جميع ما صدر منه كان معذورا فيه بل هو مأجور لأنه مجتهد» فتح الباري ٥/ ٣٤٦.

(٤) أحمد، المسند ٤/ ٣٢٥.

(٥) باشميل، صلح الحديبية، ص٢٧٠، الصلابي، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ٢ / ٣٣٦.

(٦) القيادة العسكرية في عهد رسول الله، ص٤٩٥، الصلابي، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ٢ / ٣٣٦.

وهذا الهدي النبوي الكريم بين أن حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي، وأن للفرد في المجتمع المسلم الحرية في التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرأي نقداً لموقف حاكم من الحكام أو خليفة من الخلفاء، فمن حق الفرد المسلم أن يبين وجهة نظره في جو من الأمن والأمان دون ارهاب أو تسلط يخنق حرية الكلمة والفكر.

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المعارضة لرئيس الدولة في رأي من الآراء وموقف من المواقف ليست جريمة تستوجب العقاب، ويغيب صاحبها في غياهب السجون[1].

- الشورى:

فالشورى ميزة عظمى لهذه الأمة، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في معرض المدح للمؤمنين، وقرنها بالطاعة والصلاة والزكاة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

وأمر بها نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقد استشار الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه في غزوة الحديبية مرتين:

الأولى: استشار الصحابة في الإغارة على ذراري المشركين أو تركهم، ونزل على رأي أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تركهم.

والثانية: استشار أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في أمر الناس حين لم يبادروا بالنحر والحلق، وقد أمرهم بذلك، فأشارت عليه بأن يبدأ ذلك بنفسه ففعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد جعل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلافة من بعده شورى في الستة الباقية من العشرة المبشرين بالجنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[2].

وبهذا تتضح لنا أهمية الشورى ومكانتها في الإسلام حيث جعلها الله من

---

(١) غزوة الحديبية لأبي فارس، ص١٣٤، ١٣٥، الصلابي، السيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ٢ / ٣٣٦.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب فضائل الصحابة: ٣٧٠٠.

صفات المؤمنين، وأمر بها نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمل بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مواطن كثيرة، وعمل بها الخلفاء الراشدون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فمن بعدهم أولى بالمشورة وأحوج إليها منهم.

وقد نوه ابن عطية بشأن الشورى، ثم حكى الإجماع على وجوب عزل من لا يستشير أهل الدين. قال: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه[1].

وقال ابن تيمية[2]: "لا غنى لولي الأمر عن المشاورة، فإن الله قد أمر بها نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الآية".

ومحل الشورى: هو أمور الحرب، والنوازل، وسائر الأمور التي لم يرد فيها دليل صريح من الشرع[3].

ومن فوائد الشورى:

١ - تأليف قلوب الأتباع واستطابة نفوسهم.

٢ - استخراج وجه الرأي منهم.

٣ - التعرف على مصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض[4].

- مشروعية الاستعانة بالمشرك:

جاء في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث بسر بن سفيان الخزاعي عيناً إلى مكة.

وقد استدل بعض العلماء بقصة بسر هذه على جواز الاستعانة بالمشركين في الجهاد.

قال ابن القيم: "إن الاستعانة بالمشرك المأمون في الجهاد جائزة عند الحاجة، لأن عينه الخزاعي كان كافراً إذ ذاك، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذه أخبارهم"[5] اهـ.

---

(١) تفسير ابن عطية، ٣/ ٢٨٠.

(٢) السياسة الشرعية، ١٥٧.

(٣) ابن تيمية، السياسة الشرعية، ص ١٥٧، تفسير ابن عطية ٣/ ٢٨١.

(٤) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٧٨.

(٥) زاد المعاد ٣/ ٣٠١.

والظاهر أن ليس في قصة الخزاعي هذه دلالة على جواز الاستعانة بالمشرك في الجهاد؛ لأنه لم يرد في هذا الحديث ولا في غيره ما يدل على أنه كان كافراً إذ ذاك.

بل ورد عن بعض العلماء ما يدل على أنه أسلم قبل الحديبية[1].

فقد قال عبد البر: "بسر بن سفيان بن عويمر الخزاعي، أسلم سنة ست من الهجرة، وبعثه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيناً إلى قريش إلى مكة، وشهد الحديبية، وهو المذكور في حديث الحديبية من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان قوله: حتى إذا كان بغدير الأشطاط لقيه عينه الخزاعي، فأخبره خبر قريش وجموعهم، قالوا: هو بسر بن سفيان هذا"[2]

وقد نقل ابن حجر كلام ابن عبد البر وسكت عليه[3].

وعلى فرض أنه لم يثبت ما ورد في إسلامه فلا تصلح قصته دليلاً على جواز الاستعانة بالمشرك، لوجود الاحتمال، لا سيما وهي معارضة بأحاديث صحيحة.

فالحاصل: أن قصة بسر بن سفيان الخزاعي لا دلالة فيها على جواز الاستعانة بالمشرك مطلقاً ولم يثبت في ذلك شيء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ذكر بعض العلماء، وإنما وردت بذلك أحاديث كلها ضعيفة[4].

وقد ذهب إلى جواز الاستعانة بالمشركين جماعة من العلماء، وقد استدلوا أيضاً بقصة شهود صفوان بن أمية لغزوة حنين، وهو مشرك، وبشهود قزمان غزوة أحد وهو مشرك، وبشهود ابن أُبَيْ لبعض الغزوات[5].

وقد اشترطوا لجواز ذلك شروطاً هي:

١ - أن يكون في المسلمين قلة وتدعوا الحاجة إلى ذلك.

٢ - أن يكونوا ممن يوثق بهم فلا تخشى ثائرتهم.

٣ - أن يكون مع الإمام جماعة يستقل بهم في إمضاء الأحكام[6].

---

(١) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٧٨.
(٢) الاستيعاب ١/ ٣٠٩.
(٣) الإصابة ١/ ٢٤٥.
(٤) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٧٨.
(٥) انظر: مسند أحمد ٣/ ٤٥٤، المغني لابن قدامة، ٨/ ٤١٤، نيل الأوطار، نيل الأوطار ٧/ ٢٣٧.
(٦) المغني لابن قدامة ٨/ ٤١٤، نيل الأوطار ٧/ ٢٣٧، سبل السلام ٤/ ٥٠، حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٨٠.

- استحباب الفأل :

قال ابن القيم: "استحباب التفاؤل وأنه ليس من الطيرة المكروهة لقوله لما جاء سهيل "سهل أمركم "[1].

وقد ورد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يفيد استحباب الفأل ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا طيرة وخيرها[2] الفأل**» ، قالوا: «**وما الفأل يا رسول الله؟**» قال: «**الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**» [3].

وفيه من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة**» [4].

وفي سنن أبي داود من حديث عروة بن عامر قال: ذكرت الطيرة عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**» [5].

فهذه الأحاديث تؤيد ما ذكره ابن القيم من استحباب التفاؤل ، وأنه ليس من الطير المذمومة ، والفرق بينهما: "أن الفأل من طريق حسن الظن بالله ، والطيرة لا تكون إلا في السوء ؛ فلذلك كرهت "[6].

- وجوب طاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والانقياد لأمره وإن خالف ظاهر ذلك القياس أو كراهته النفوس:

جاء في حديث المسور ومروان وغيره في قصة الحديبية أن عمر بن الخطاب وبعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كرهوا الصلح مع قريش لما رأوا في شروطها من الظلم والإجحاف في حقهم ، لكنهم ندموا بعد ذلك على صنيعهم ورأوا أنهم قد وقعوا

---

(١) زاد المعاد ، ٣/ ٣٠٥ .

(٢) قال ابن حجر: "أفعل التفضيل هنا إنما هو بين القدر المشترك بين الشيئين ، والقدر المشترك بين الطيرة والفأل تأثير كل منهما فيما هو فيه ، والفأل في ذلك أبلغ". فتح الباري ١٠/ ٢١٤ .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ، كتاب الطب: ٥٧٥٥ .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح ، كتاب الطب: ٥٧٥٦ .

(٥) سنن أبي داود مع معالم السنن / كتاب الطب: ٣٩١٩ .

(٦) نقله ابن حجر ، فتح الباري ١٠/ ٢١٥ .

في حرج، إذ كيف يكرهون شيئاً رضيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وظلت تلك الحادثة درساً لهم فيما استقبلوا من حياتهم، وكانوا يحذرون غيرهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الاعتماد على الرأي:

فكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "أيها الناس اتهموا الرأي على الدين فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برأي اجتهاداً فوالله ما آلو عن الحق وذلك يوم أبي جندل"(١).

وكان سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "اتهموا رأيكم رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرددته"(٢).

ولقد ظل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ برهة من الزمن - متخوفاً أن ينزل الله به عقاباً للذي صنع يوم الحديبية:

فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتحدث عن قصته تلك ويقول: "فما زلت أصوم وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً"(٣).

قال ابن الديبع الشيباني تعليقاً على هذه الحادثة: "قال العلماء لا يخفى ما في هذه القصة من وجوب طاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والانقياد لأمره، وإن خالف ظاهر ذلك مقتضى القياس أو كرهته النفوس، فيجب على كل مكلف أن يعتقد أن الخير فيما أمر به، وأنه عين الصلاح المتضمن لسعادة الدنيا والآخرة، وأنه جار على أتم الوجوه وأكملها غير أن أكثر العقول قصرت عن إدراك غايته وعاقبة أمره"(٤) اهـ.

وقد ذكر ابن القيم(٥) أن الرأي الباطل أنواع: فذكر منها الرأي المخالف للنص، والكلام في الدين بالخرص والظن مع التفريط في معرفة النصوص وفهمها، والرأي المتضمن تعطيل الأسماء والصفات الإلهية، ثم قال: "وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم

(١) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٣١٣.
(٢) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٣١٣.
(٣) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٣١٣.
(٤) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار، ٢/ ٦٢٢.
(٥) أعلام الموقعين، ١/ ٧١ - ٧٢.

هلاكه، وفي أمة إلا وفسد أمرها أتم فساد، فلا إله إلا الله.

كم نُفي بهذه الآراء من حق، وأُثبت بها من باطل، وأُميت بها من هدى، وأُحيى بها من ضلالة، وكم هدم من معقل الإيمان، وعمر بها من دين الشيطان، وأكثر أصحاب الجحيم، هم أهل هذه الآراء الذين لا سمع لهم، ولا عقل، بل هم شر من الحمر، وهم الذين يقولون يوم القيامة: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] (١).

أنموذج من التربية النبوية:

جاء في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يصعد الثنية ثنية المرار فإنه يحط ما حط عن بني إسرائيل**» (٢).

ويتجلى في هذا الحديث جانب عظيم من جوانب التربية النبوية جدير بالتأمل والتدبر.

فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستحث أصحابه على صعود الثنية ثم يخبرهم أن الذي يجتازها سينال مغفرة الله تعالى.

وحين نتأمل هذا الحديث تبرز لنا معان عظيمة أهمها أمران:

الأول: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يربط قلوب أصحابه باليوم الآخر في كل لحظة من لحظات حياتهم.

الثاني: أنه يريد لفت أنظارهم إلى أن كل حركة يتحركونها وكل عمل يقومون به - حتى ما يرون أنه من العادات أو من دواعي الغريزة - يجب استغلاله للتزود لذلك اليوم.

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسعى دائماً لترسيخ تلك المعاني في قلوب أصحابه:

فنراه يقول في موطن آخر: «**وفي بضع أحدكم صدقة**» قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**» (٣).

ويقول في موطن ثالث: «**وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة**

---

(١) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٣١٣.
(٢) مسلم، كتاب صفات المنافقين رقم ٢٧٨٠.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الزكاة: ٥٣.

التي ترفعها إلى في امرأتك» [1].

ولكن ما الذي يحدث حين تترسخ تلك المعاني في شعورهم؟

إن تلك المعاني - إذا تمكنت من قلب المسلم - لكفيلة بأن تصبغ حياته كلها بصبغة العبودية لله وحده، وإذا شملت العبادة كل نواحي حياة المسلم فإن لهذا الشمول آثاراً مباركة سوف يشعر بها الفرد في نفسه ثم يلمسها فيمن حوله" ومن أبرز تلك الآثار أمران:

الأول: أنه يصبغ حياة المسلم وأعماله فيها بالصبغة الربانية، ويجعله مشدوداً إلى الله في كل ما يؤديه، فهو يقوم بنية العابد الخاشع، وروح القانت المخبت، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع، وكل إنتاج صالح، وكل ما ييسر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة، على أمثل وجوهها، فإن ذلك يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله تعالى كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدنيوي وتجويده وإتقانه، ما دام يقدمه إلى ربه سبحانه ابتغاء رضوانه وحسن مثوبته.

الثاني: أنه يمنح المسلم وحدة الوجهة، ووحدة الغاية في حياته كلها، فهو يرضى رباً واحداً في كل ما يأتي ويدع، ويتجه إلى هذا الرب بسعيه كله الديني والدنيوي، لا انقسام ولا صراع، ولا ازدواج في شخصيته ولا في حياته" [2].

وقد يقول قائل - انطلاقاً من واقعنا المؤلم الذي تلاشت فيه هذه المعاني أو كادت - إن هذه المعاني خيالات وأوهام لا تعدو ذهن قائلها ولا رصيد لها من الواقع، ونحن نطالبه أن يرجع إلى الوراء قليلاً فينظر واقع الصحابة رضوان الله عليهم كيف استحالت تلك المعاني إلى حقائق ملموسة في حياتهم كلها، وما حفظ الله سيرتهم إلا لتكون حجة على كل من جاء بعدهم [3].

- مثل رائع لوفاء المسلم وثباته على العقيدة:

كان من جملة الشروط التي أخذتها قريش على المسلمين في صلح الحديبية: أن على المسلمين أن يردوا من جاءهم من قبل قريش، ولا ترد قريش من جاءها من قبل المسلمين.

وقد كره المسلمون هذا الشرط إلا أن سهيل بن عمرو قد أصر عليه، وما أن

(١) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الوصايا: ٢٧٤٢.
(٢) العبادة في الإسلام، ٦٦.
(٣) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٣١٥.

وقع الاتفاق بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسهيل بن عمرو على عقد الصلح حتى طلع عليهما أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، وكان قد خرج فاراً بدينه إلى المسلمين.

فلما رآه والده قام إليه فضرب وجهه وأخذ بجره بثيابه ليرده إلى مكة، وأبو جندل يستنجد برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالمسلمين ليحولوا بينه وبين أبيه، لكن ماذا يملك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون؟ إنهم قد أعطوا قريشاً عهداً على رد من جاء من قبلها، فالأمر أصبح بيد قريش، وسهيل بن عمرو هو الناطق باسمها.

وحين رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إصرار سهيل بن عمرو على رد أبي جندل تركه وشأنه، ثم أوصى أبا جندل بكلمات قال فيها: «**يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله عز وجل جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً**».

ورجع سهيل بن عمرو بأبي جندل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مكة حيث الفتنة والتعذيب.

وليست قصة أبي جندل هذه بأعجب من قصة أبي بصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأبو بصير ترك مكة فراراً بدينه من الفتنة، وقدم المدينة، لكنه لم يكد يستعيد أنفاسه حتى قدم في طلبه رجلان من قبل قريش.

فما الذي سيحدث يا ترى؟

هل خوف أبي بصير على دينه من الفتنة سيشفع له في عدم إسلامه لرسولي قريش؟

إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدرك حال أبي بصير تماماً ويشفق عليه أيما إشفاق، كيف لا! والله عز وجل يقول في حقه: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨].

لكن كان يحول بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين حماية أبي بصير من قريش العهد الذي أخذته قريش على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلذلك أسلم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بصير إلى رسولي قريش بعد أن زوده بنحو الوصية التي زود بها أبا جندل.

وخرج الرجلان بأبي بصير يريدان مكة، حيث الفتنة والتعذيب.

ففي هاتين القصتين دروس عظيمة أهمها درسان:

الأول: وفاء المسلم بعهده، فقد رأينا كيف أسلم المؤمنون إخوانهم إلى الكفار وهم يعلمون أن مصيرهم ثَمّ هو التعذيب، وما فعلوا ذلك إلا وفاء بالعهد، فالوفاء صفة أصيلة في المؤمن، وقد امتدح الله المؤمنين بذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٠]، كما ذم الكفار بنقيض ذلك فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

الثاني: ثبات المؤمن على عقيدته مهما كلفه من ثمن، فأبو بصير وأبو جندل يعلم كل منهما ما ينتظره في مكة من الفتنة والتعذيب، لكن لم يعبأ واحد منهما لذلك إنما كان خوفهما على دينهما لأن العقيدة هي أغلى ما يملكه المؤمن، ولقد شهدت مكة نماذج كثيرة من ذلك الثبات، فقد شهدت قبل ذلك خبيب بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تتناوشه رماح قريش وهو يقول:

ما إن أبالي حين أقتل مسلماً ::: على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ::: يبارك على أوصال شلو ممزع[1][2]

صروح الكفر والطغيان تتهاوى أمام عزمات الإيمان.

يشعر القارئ لهذه الغزوة أن عناية الله ورعايته كانت تحوط المؤمنين وتلازمهم ملازمة ظاهرة، فحينما قدم المسلمون لهذه الغزوة - وكانوا عازمين على دخول مكة لأداء عمرتهم - حبس الله ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحديبية فكان ذلك الصلح العظيم.

ولما وجد الصحابة رضوان الله عليهم في نفوسهم من الصلح - بسبب شروط قريش - أنزل الله سورة الفتح فسرى بها عن أنفسهم وبشرهم بأن الصلح

---

(١) قال ذلك حين أرادت قريش قتله، وكان من قصته أنه جاء رهط من عضل والقاره إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فادّعوا الإسلام وطلبوا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرسل معهم من يعلمهم، فأرسله في تسعة من القراء، سنة ثلاث، وأميرهم عاصم بن ثابت، فغدر بهم أولئك الرهط فقتلوا بعضهم وأسروا البعض، وكان ممن أسروا خبيب بن عدي فأسلموه إلى قريش. انظر صحيح البخاري مع الفتح، كتاب المغازي: ٤٠٨٦، وسيرة ابن هشام ٣/ ١٦٩.

(٢) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٣١٣.

فتح مبين .

وعندما قدم بعض المهاجرات فراراً بدينهن من فتنة قريش أرسلت قريش في ردهن فأنزل الله آية الامتحان ، تنهى المؤمنين عن ردهن إلى الكفار .

وقد أبرزت سورة الفتح جوانب كثيرة من مظاهر رعاية الله للمؤمنين في تلك الغزوة .

فهل يا ترى هذه الرعاية - التي أولاها الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة رضوان الله عليهم - كانت خاصة بهم ، أم أن هناك أسباباً بذلوها فأهلتهم لتلك الرعاية من الله سبحانه؟

إن الله سبحانه وتعالى قد بين في كتابه المؤهلات لرعايته وعنايته فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] .

وقال: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] .

وقال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢] .

وقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣] .

وقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

فهذه الصفات قد توافرت في الصحابة رضوان الله عليهم فنالوا تلك الرعاية والعناية من الله ، ومتى توافرت في شخص أو أمة في كل زمان ومكان فإن رعاية الله سوف تتنزل عليهم ، لأن الله قد وعد بذلك ووعده الحق[1] .

حكم القيام على رأس الكبير وهو جالس:

جاء في حديث المسور ومروان: أن المغيرة بن شعبة كان قائماً على رأس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه السيف .

قال ابن القيم: "في قيام المغيرة بن شعبة على رأس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسيف ولم يكن من عادته أن يقام على رأسه وهو قاعد سنة يقتدى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر وتعظيم الإمام وطاعته ووقايته بالنفوس وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين وليس هذا من النوع الذي ذمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**من أحب**

(١) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص ٣٠٩ .

أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوّا مقعده من النار» [1].

كما أن الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره[2]، ويشبه هذا مافعله أبو دجانة في غزوة أحد، فكل مايدل على التكبر أو التجبر في المشي ممنوع شرعاً ولكنه جائز في حالة الحرب بخصوصها بدليل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مشية أبي دجانة: «**إنها مشية يكرهها الله إلا في هذا الموضع**»[3].

معجزات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة:

أجرى الله - تبارك وتعالى - على يدي أنبيائه ورسله من المعجزات الباهرات والدّلائل القاطعات والحجج الواضحات ما يدلّ على صدق دعواهم أنّهم رسل الله، وكي تقوم الحجّة البالغة على النّاس فلا يبقى لأحد عذر في عدم تصديقهم وطاعتهم. فقال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ**﴾ [الحديد: ٢٥].

والفرق بين المعجزة وغيرها من الدّلالة والعلامة أنّ المعجزة يشترط فيها التّحدّي وأن يكون المتحدّى به ممّا يعجز عنه البشر في العادة المستمرّة. أمّا الدّلائل والعلامات فتقع دالّة على صدق الأنبياء والرّسل من غير سبق تحدّ وسمّيت المعجزة كذلك لعجز الخلق عن معارضتها والإتيان بمثلها.

والحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أكثر الرّسل معجزة وأبهرهم آية وأظهرهم برهانا فله من المعجزات ما لا يحدّ ولا يعدّ، وقد ألّفت في معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤلّفات الكثيرة وتناولها العلماء بالشّرح والبيان. ممّن اعتنى بجمعها من الأئمّة أبو نعيم الأصبهانيّ والبيهقيّ.

والمعجزة في اصطلاح العلماء: أمر خارق للعادة؛ أي جار على خلاف العادة الكونية التي أجراها الله تعالى في الكون سالم عن المعارضة يظهره الله تعالى على يد الرسول تأييدا له.

وفي هذه الغزوة وقعت معجزتين للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلما أن جازوا المسلمون الثنية - وكان آخر الليل - هبطوا على الحديبية فلم

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٢٩): باب قيام الرجل للرجل.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٠٤).

(٣) فقه السيرة للبوطي، ص٢٤١، حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٣٠٩.

يجدوا بها إلا ماء منقطعاً لم يقم شيئاً لعطشهم - وكانوا قد نزلوا في شدة الحر - فهرعوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشكون قلة الماء، وعندها ظهرت معجزة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي أكرمه الله بها حيث استحالت تلك البئر - التي قد نضب ماؤها أو كاد - عيوناً متدفقة:

ففي حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم من طريق معمر: بعد أن ذكر الثنية وبروك ناقة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ثم زجرها[1] فوثبت، ثم عدل عن دخول مكة وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء[2] يتبرّضه[3] النّاس تبرّضا، فلم يلبّثه النّاس حتّى نزحوه، وشكي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العطش؛ فانتزع سهما من كنانته، ثمّ أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرّيّ حتّى صدروا عنه وكان ذلك من معجزاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[4].

ولقد تكررت معجزة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتكثير الماء في غزوة الحديبية وذلك حينما وضع يده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الإناء.

قال القرطبيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قصّة نبع الماء من بين أصابعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تكرّرت منه في عدّة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها العلم القطعيّ المستفاد من التّواتر المعنويّ ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبيّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه»[5].

ومن هذه المواطن الّتي حدث بها تكثير الماء ونبعه من بين أصابع نبيّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «عطش النّاس يوم الحديبية والنّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يديه ركوة[6]، فتوضّأ فجهش[7] النّاس نحوه فقال: «ما

---

(١) زجرها: حثها وحملها على السرعة. النهاية ٢/ ٢٩٦.

(٢) ثمد قليل الماء: أي حفيرة فيها ماء مثمود أي قليل.

(٣) يتبرضه: هو الأخذ قليلا قليلا.

(٤) البخاري - الصحيح (فتح الباري ٥/ ٣٣١ - حديث ٢٧٣٢)، وفي رواية صحيحة أخرى أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا بماء فتمضمض ومج في البئر (البخاري - الصحيح، فتح الباري - حديث ٢٥٧٧) ويمكن الجمع بين الحديثين.

(٥) فتح الباري (٦/ ٦٧٦، ٦٧٧).

(٦) ركوة: قال ابن الأثير: الركوة إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء والجمع ركاء. انظر النهاية (٢/ ٢٦١).

(٧) فجهش: قال ابن الأثير: الجهش أن يفزع الإنسان إلى الإنسان، وهو مع ذلك يريد أن يبكي كالصبي يفزع إلى أمه. انظر جامع الأصول (١١/ ٣٤٧).

لكم؟» قالوا: ليس عندنا ماء نتوضّأ، ولانشرب إلّا ما بين يديك فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون. فشربنا وتوضّأنا. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنّا مائة ألف لكفانا. كنّا خمس عشرة مائة [1].

- ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنّه قال: «رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحانت صلاة العصر، فالتمس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوضوء فوضع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده في ذلك الإناء فأمر النّاس أن يتوضّؤوا منه، فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضّأ النّاس حتّى توضّؤوا من عند آخرهم» [2].

قال المزنيّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: نبع الماء من بين أصابعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالعصا فتفجّرت منه المياه لأنّ خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللّحم والدّم. انتهى» [3].

نتائج غزوة الحديبية:

لقد تمخضت هذه الغزوة عن نتائج عظيمة لم تتوافر في غزوة قبلها أو بعدها فيما أعلم، وأهمها ما يلي:

أولاً: ترتبت على الصلح آثار إيجابية ضخمة منها ما يلي:

أ - اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان المسلمين، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندين، وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحودي، حيث كانوا يرون أنها الإمام والقدوة.

ب - دخلت المهابة في قلوب المشركين والمنافقين وتيقن الكثير منهم بغلبة الإسلام، وقد تجلت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثير من صناديد قريش إلى الإسلام، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص [4]، كما تجلت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم بعد أن خابت ظنونهم إذ كانوا

---

(١) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٧٦). ورواه مسلم مختصرا برقم (١٨٥٦).
(٢) رواه البخاري. انظر الفتح ٦ (٣٥٧٣). ورواه مسلم برقم (٢٢٧٩).
(٣) نقله عنه ابن عبد البر. انظر فتح الباري (٦/ ٦٧٧).
(٤) كان إسلامهما عقب صلح الحديبية، انظر سيرة ابن هشام ٣/ ٢٧٦.

يتوقعون أنها القاضية على المسلمين، كما أخبر الله بذلك عنهم[1].

جـ - أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام، وتعريف الناس به، مما أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه.

يقول الزهري: "فما فتح في الإسلام فتح قبله، كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك"[2] اهـ.

وعقب عليه ابن هشام[3] بقوله: "والدليل على قول الزهري: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف"[4] اهـ.

د - أمن المسلمون جانب قريش فحولوا ثقلهم على اليهود ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى[5].

ثانياً: كسب المسلمون الذين شهدوا هذه الغزوة بسببها فوائد كثيرة - أخروية ودنيوية - وأهمها ما يلي:

أ - فازوا برضى الله عز وجل عنهم.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ . . .﴾ الآية [الفتح: ١٨].

---

(١) قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا* بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٠ - ١١].

(٢) سيرة ابن هشام، ٣/ ٣٢٢.

(٣) سيرة ابن هشام، ٣/ ٣٢٢.

(٤) جاء هذا العدد في حديث ابن عباس، صحيح البخاري مع الفتح كتاب المغازي: ٤٢٧٦، وقد روي أنهم أكثر من ذلك، انظر: مرويات غزوة فتح مكة لمحسن الدوم، ص ٥٦ وما بعدها.

(٥) أخذت بعض المعاني السابقة عن كتاب "سيرة الرسول" لمحمد عزة دروزة، ٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣، وكتاب "موسوعة التاريخ الإسلامي" لأحمد شلبي ١/ ٣٣٠ - ٣٣١، وكتاب "السيرة النبوية" لأبي شهبة، ص ٢٨٢.

ب – أخبرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أن الله قد غفر لهم**».

ففي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا" فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر**» (١).

جـ – شهد لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم خير أهل الأرض.

ففي صحيح البخاري من حديث جابر قال: قال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية: «**أنتم خير أهل الأرض...**» (٢).

د – بشرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بالنجاة من النار.

ففي صحيح مسلم من حديث أم مبشر أنها سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول عند حفصة: «**لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها...**» (٣).

هـ – قسمت عليهم غنائم خيبر، ففي حديث مجمع بن جارية الأنصاري: "فقسمت خيبر على أهل الحديبية، فقسمها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ثمانية عشر سهماً، وكان الجيش ألفاً وخمسمائة فيهم ثلاثمائة فارس، فأعطى الفارس سهمين، وأعطى الراجل سهماً" (٤).

وشرعت في هذه الغزوة كثير من الأحكام والرخص التي كان لها أثر كبير في حياة المسلمين ومن أهمها ما يلي:

أ- شرعت فيها صلاة الخوف على الصحيح:

فقد أنزل الله تعالى على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الخوف في هذه الغزوة وبين القرآن الكريم صفة الصلاة ساعة مواجهة العدو وهي قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: ١٢.

(٢) البخاري – الصحيح (فتح الباري، حديث ٤١٥٤).

(٣) مسلم – الصحيح – كتاب فضائل الصحابة ٤/ ١٩٤٢ حديث ٢٤٩٦).

(٤) سنن أبي دواد مع معالم السنن، كتاب الجهاد: ٢٧٣٦.

فقد صلى المسلمون صلاة الخوف، وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفت معه، وطائفة في وجه العدو. فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت في صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم.

وفي رواية أنه صلى بطائفة ركعتين ثم تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربع ركعات وللقوم ركعتان[1]

قال الدكتور البوطي: ووجه التوفيق بين الحديثين أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صلى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرة فصلاها مرة على النحو الأول وصلاها مرة أخرى على النحو التالي.

وكانت هذه الصلاة بمنطقة نخل التي تبعد عن المدينة بيومين[2] ودّل تشريع صلاة الخوف على أهمية الصلاة، فحتى في قلب المعركة لايمكن التساهل فيها، ولايمكن التنازل عنها، مهما كانت الظروف وبذلك تندمج الصلاة والعبادة بالجهاد وفق المنهاج النبوي في تربية الأمة الذي استمد من كتاب الله تعالى، فلايوجد أي انفصال أو انفصام بين العبادة والجهاد[3].

ب- شرعت فيها الفدية لمن ارتكب شيئاً من محظورات الإحرام.:

فقد قال كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقف عليَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحديبية ورأسي يتهافت[4] قملاً فقال: «**أيؤذيك هوامك**»[5] قلت: نعم، قال: «**فاحلق رأسك**» أو قال: «**احلق**» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ**﴾ [البقرة: ١٩٦] فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صم ثلاثة أيام، أو تصدق بفرق بين ستة أو انسك**[6] **بما تيسر**»[7] وفي رواية مسلم: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر به وهو بالحديبية قبل أن يدخل مكة وهو محرم وهو يوقد تحت قدر والقمل يتهافت على وجهه فقال:

---

(١) مسلم (٢/ ٥٧٦) رقم ٣١١، سنن أبي داود مع معالم السنن، كتاب الصلاة: ٢١٥.
(٢) فقه السيرة النبوية للبوطي، ص٢٠٧.
(٣) التربية القيادية (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤).
(٤) يتهافت: يتساقط، النهاية (٥/ ٢٦٦).
(٥) الهوام: جمع هامة وهي ما يدب من الأخشاش، والمراد القمل.
(٦) انسك: اذبح، النهاية (٥/ ٤٨).
(٧) صحيح البخاري مع الفتح كتاب المحصر: ١٨١٥.

أيؤذيك هوامك هذا؟ قال نعم ، قال: فاحلق رأسك وأطعم فرقًا بين ستة مساكين (والفرق ثلاث أصع) أو صم ثلاثة أيام أو انسك نسيكة[1] ، وآية البقرة المذكورة تبين حكم من كان مُحرمًا وبه أذى من رأسه ، وهي نزلت في كعب بن عجرة خاصة ، وأصبحت لكل مسلم يمر بنفس الحالة .

جـ- شرع فيها الصلح مدة معلومة عند حاجة المسلمين إليه :

استدل العلماء والأئمة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنة بين المسلمين وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدة معلومة ، سواء أكان ذلك بعوض يأخذونه منهم أم بغير عوض ، أما بدون عوض فلأن هدنة المدينة كانت كذلك ، وإما بعوض فبقياس الأولى لأنها إذا جازت بدون عوض ، فلأن تجوز بعوض أقرب وأوجه .

وأما إذا كانت المصالحة على مال يبذله المسلمون ، فهو غير جائز عند جمهور المسلمين ، لما فيه من الصغار لهم ، ولأنه لم يثبت دليل من الكتاب أو السنة على جواز ذلك ، قالوا: إلا إن دعت إليه ضرورة لامحيص عنها وهو أن يخاف المسلمون الهلاك أو الأسر فيجوز ، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال .

وقد ذهب الشافعي وأحمد رَحِمَهُمُ اللَّهُ وكثير من الأئمة إلى أن الصلح لاينبغي أن يكون إلا إلى مدة معلومة ، وأنه لايجوز أن تزيد المدة على عشر سنوات مهما طالت ، لأنها هي المدة التي صالح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريشاً عليها عام الحديبية[2] .

وذهب آخرون إلى جواز الهدنة أكثر من عشر سنين على مايراه الإمام من المصلحة وهو قول أبي حنيفة[3] .

والتحقيق: أن القول الأول هو الراجح لظاهر الحديث ، وإن وجدت مصلحة في الزيادة على العشر جدد العقد ، كما قال الشافعي[4] .

وقال بعض المتأخرين يجوز عقد صلح مؤبد غير مؤقت بمدة معينة واستدل بقوله تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ

---

(١) مسلم ، كتاب الحج: ١٢٠١ .

(٢) فقه السيرة النبوية للبوطي ، ص٢٤٢ .

(٣) فتح القدير (٥/ ٥٤٦) ؛ غزوة الحديبية ، ص٢٩٤ .

(٤) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص ٣٠٩ .

صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

وهذا قول مبني على أن الأصل في علاقة المسلمين بالكفار هي السلم لا الحرب، وأن الجهاد إنما شرع لمجرد الدفاع عن المسلمين فحسب.

وهذا القول مردود لما يلي:

أ - أن صاحب هذا القول قد خرق الاتفاق بعد أن حكاه بنفسه حيث قال: اتفق الفقهاء على أن عقد الصلح مع العدو لابد من أن يكون مقدوراً بمدة معينة، فلا تصح المهادنة مطلقة إلى الأبد من غير تقدير بمدة[1].

ب - الآية التي استدل بها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]. فقد نقل ذلك ابن جرير[2] عن عكرمة والحسن وقتادة وابن زيد، وحكاه القرطبي[3] عن مجاهد. ثم قال: وهو أصح شيء في معنى الآية.

جـ - الأصل الذي انبنى عليه هذا القول: مردود بآية براءة السابقة وبواقع سيرة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخلفائهم مع أعدائهم.

د - أما فكرة أن الجهاد إنما شرع للدفاع عن المسلمين، فهي فكرة دخيلة وقد تصدى لها سيد قطب[4] رَحِمَهُ اللهُ ففندها، وبين أن سبب نشوئها هو الانهزام أمام هجمات المستشرقين، وعدم الفهم لمرحلية الدعوة[5].

د - شرع فيها التحلل للمحصر، وأنه لا يلزمه القضاء.

لما فرغ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قضية كتابة الصلح قال لأصحابه، قوموا فانحروا ثم احلقوا... حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها مالقي من الناس، فقالت أم سلمة يانبي الله أتحب ذلك؟

---

(١) د. وهبة الزحيلي، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، ص٦٧٥، ٦٨٠.
(٢) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٤ - ٢٦).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٠٨).
(٤) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٣٣) ومابعدها.
(٥) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٣٠٩.

أخرج ثم لاتكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه ودعا حالقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غما[1].

وقد حلق رجال يوم الحديبية، وقَصّر آخرون. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يرحم الله المحلقين**» قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: «**يرحم الله المحلقين**»، قالوا والمقصرين يارسول الله؟ قال: «**يرحم الله المحلقين**»، قالوا: والمقصرين يارسول الله؟ قال: «**والمقصرين**»[2].

وكان في هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديبية جملاً لأبي جهل في رأسه برة[3] من فضة، يغيظ بذلك المشركين[4].

ودل عمل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الفراغ من أمر الصلح، من التحلل والنحر والحلق، على أن المحصر يجوز له أن يتحلل، وذلك بأن يذبح شاة حيث أحصر أو مايقوم مقامها ويحلق ثم ينوي التحلل مما كان قد أهلّ به، سواء كان حجّاً أو عمرة، كما دلّ على أن المتحلل لا يلزم بقضاء الحج أو العمرة إذا كان متطوعاً، وخالف الحنفية فرأوا أن القضاء بعد المباشرة واجب. بدليل أن جميع الذين خرجوا معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلح الحديبية خرجوا معه في عمرة القضاء، إلا من توفي أو استشهد منهم في غزوة خيبر[5].

هـ- شرعت فيها رخصة الصلاة في الرحال في حال المطر:

روى ابن ماجة عن أبي المليح بن أسامة قال: خرجت إلى المسجد في ليلة مطيرة فلما رجعت استفتحت فقال أبي: من هذا؟ قال: أبو المليح. قال: لقد رأيتنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الحديبية وأصابتنا سماء لم تبل أسافل نعالنا فنادى منادي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلوا في رحالكم[6]. وهذا الحديث

---

(١) البخاري، كتاب الشروط (٣/ ٢٤٠) رقم ٢٧٣٢.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٨).
(٣) البرة: حلقة تجعل في أنف البعير ليذل ويرتاض.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٩).
(٥) فقه السيرة للبوطي، ص٢٤٣، حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٩٦.
(٦) سنن ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة: ٩٣٦.

صحيح ، فسنده متصل برواية الثقات وقد صححه ابن حجر[1] . .

و- شرع فيها قضاء الصلاة الفائتة بالنوم أو النسيان عند ذكرها. :

بعد أن تحلل المسلمون من عمرتهم تلك قفلوا راجعين إلى المدينة فلما كان من الليل عدلوا عن الطريق للنوم ووكلوا بلالاً بحراستهم ، فنام بلال ولم يوقظهم إلا حر الشمس[2] كما جاء في حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث قال: أقبلنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زمن الحديبية فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يكلؤونا؟**» فقال بلال: أنا . فناموا حتى طلعت الشمس واستيقظ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: افعلوا كما كنتم تفعلون قال: ففعلنا . قال: فكذلك فافعلوا لمن نام أو نسي[3] وقد وردت أحاديث أخرى تفيد أن قصة نومهم عن صلاة الصبح وقعت في غير الحديبية وحاول بعض العلماء التوفيق بين هذه النصوص وذهب الدكتور حافظ الحكمي إلى أن ماورد من اختلاف بين حديث عبدالله بن مسعود في قصة الحديبية وغيره محمول على تعدد القصة كما رجح ذلك النووي[4] ، وجنح إليه ابن كثير[5] وابن حجر[6] ، والزرقاني ، بل قال السيوطي لايجمع إلا بتعدد القصة[7] .

ز- نزل في هذه الغزوة تحريم نكاح الكفار من المسلمات:

لما صمم مجموعة من النساء المستضعفات في مكة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، وفي مقدمة هؤلاء النساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، فقد هاجرت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد صلح الحديبية ، أراد كفار مكة أن يردوهن فأنزل الله تعالى في حقهن: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ**

---

(١) فتح الباري (٢/ ١١٣) ، حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص ٢٩٦ .

(٢) يكلؤونا: يحرسنا .

(٣) سنن أبي داود مع معالم السنن ، كتاب الصلاة: ٤٤٧ .

(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٨١ - ١٨٢) ؛ غزوة الحديبية ، ص٢٥٨ .

(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢١٣) .

(٦) فتح الباري (١/ ٤٤٩) ؛ شرح الزرقاني على الموطأ (١/ ٤٧) .

(٧) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي ، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة ، ص ٢٩٨ .

تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠ - ١١].

ومعنى الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾، قال ابن عباس: كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدالله ورسوله، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، قال القرطبي: هذا أول دليل على أن الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامها لاهجرتها[1].

ح - نزل فيها أيضاً الأمر بفسخ نكاح المشركات وعدم الاستمرار عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلاتُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ...﴾[2].

وقد طلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم، فطلّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشّرك، فتزوّج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أميّة[3].

*****

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٦٣).

(٢) حافظ بن محمد عبد الله الحكمي، مرويات غزوة الحديبية جمع وتخريج ودراسة، ص ٢٩٨.

(٣) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد (٣/ ٢٥٨).